فَضِيلَةٌ رَائِعَةٌ فِي

مَجْمُوعَةٍ قَصَصِيَّةٍ لِلْأَطْفَالِ

المَحَبَّةُ

مَحَبَّةُ الأُمِّ

تَتَحَدَّثُ هَذِهِ القِصَّةُ عَنِ الحَادِثَةِ الَّتِي اسْتَطَاعَ فِيهَا نَبِيُّ اللهِ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِظْهَارَ مَحَبَّةِ الأُمِّ الحَقِيقِيَّةِ؛ بِفَضْلِ الحِكْمَةِ الَّتِي رَزَقَهُ اللهُ إِيَّاهَا.

الذِّرَاعَانِ المَفْتُوحَتَانِ

وَهِيَ قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ تَتَحَدَّثُ عَنِ الحُبِّ غَيْرِ المَشْرُوطِ الَّذِي يَحْمِلُهُ الأَبُ لِابْنِهِ.

نِعْمَةُ الحُبِّ الحَقِيقِيِّ

وَهِيَ قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ، تَتَحَدَّثُ عَنْ زَوْجَيْنِ أَحَبَّا بَعْضُهُمَا حُبًّا جَمًّا.

خُفُّ (رودوبيس) الذَّهَبِيُّ

وَهِيَ قِصَّةٌ شَعْبِيَّةٌ مِنَ التُّرَاثِ المِصْرِيِّ القَدِيمِ، تَحْكِي عَنِ الأَمِيرِ الطَّيِّبِ الَّذِي أَحَبَّ شَعْبَهُ فَرَزَقَهُ اللهُ مَا يَتَمَنَّاهُ، أَلَا وَهُوَ زَوْجَةٌ تُحِبُّهُ وَيُحِبُّهَا.

زَوْجُ (بورشيا)

فِي مَسْرَحِيَّةِ: (تَاجِرُ البُنْدُقِيَّةِ) لِـ(ويليام شكسبير) يَضَعُ وَالِدُ (بورشيا) خُطَّةً لِتَزْوِيجِ ابْنَتِهِ مِنْ رَجُلٍ يُحِبُّهَا بِصِدْقٍ، وَلَيْسَ لَهُ أَيُّ مَطْمَعٍ بِثَرْوَتِهَا، أَوْ جَمَالِهَا فَحَسْبُ.

عِيدُ (مَرْوَةَ)

تَتَحَدَّثُ هَذِهِ القِصَّةُ عَنْ أَهَمِّيَّةِ البَذْلِ وَالعَطَاءِ، وَعَنْ ضَرُورَةِ إِسْعَادِ الأَطْفَالِ خِلَالَ أَيَّامِ العِيدِ.

مَحَبَّةُ (تيريزا) الحَقِيقِيَّةُ

تَتَحَدَّثُ هَذِهِ القِصَّةُ عَنْ رَاهِبَةٍ تُدْعَى الأُمَّ (تيريزا)، فَقَدْ تَرَكَتْ بَيْتَهَا وَوَطَنَهَا، وَقَدِمَتْ إِلَى وِلَايَةِ (كلكتا) فِي الهِنْدِ لِمُسَاعَدَةِ الفُقَرَاءِ وَذَوِي الحَاجَةِ.

عُقْلَةُ الإِصْبَعِ ذُو الشَّارِبَيْنِ الطَّوِيلَيْنِ

وَهِيَ حِكَايَةٌ مِنَ التُّرَاثِ الرُّوسِيِّ، تَحْكِي كَيْفَ تَمَكَّنَتْ مَحَبَّةُ (إيفان) لِوَالِدَيْهِ مِنْ مَنْحِهِ الشَّجَاعَةَ اللَّازِمَةَ لِمُحَارَبَةِ أَحَدِ العَفَارِيتِ.

مَحَبَّةُ الأُمِّ

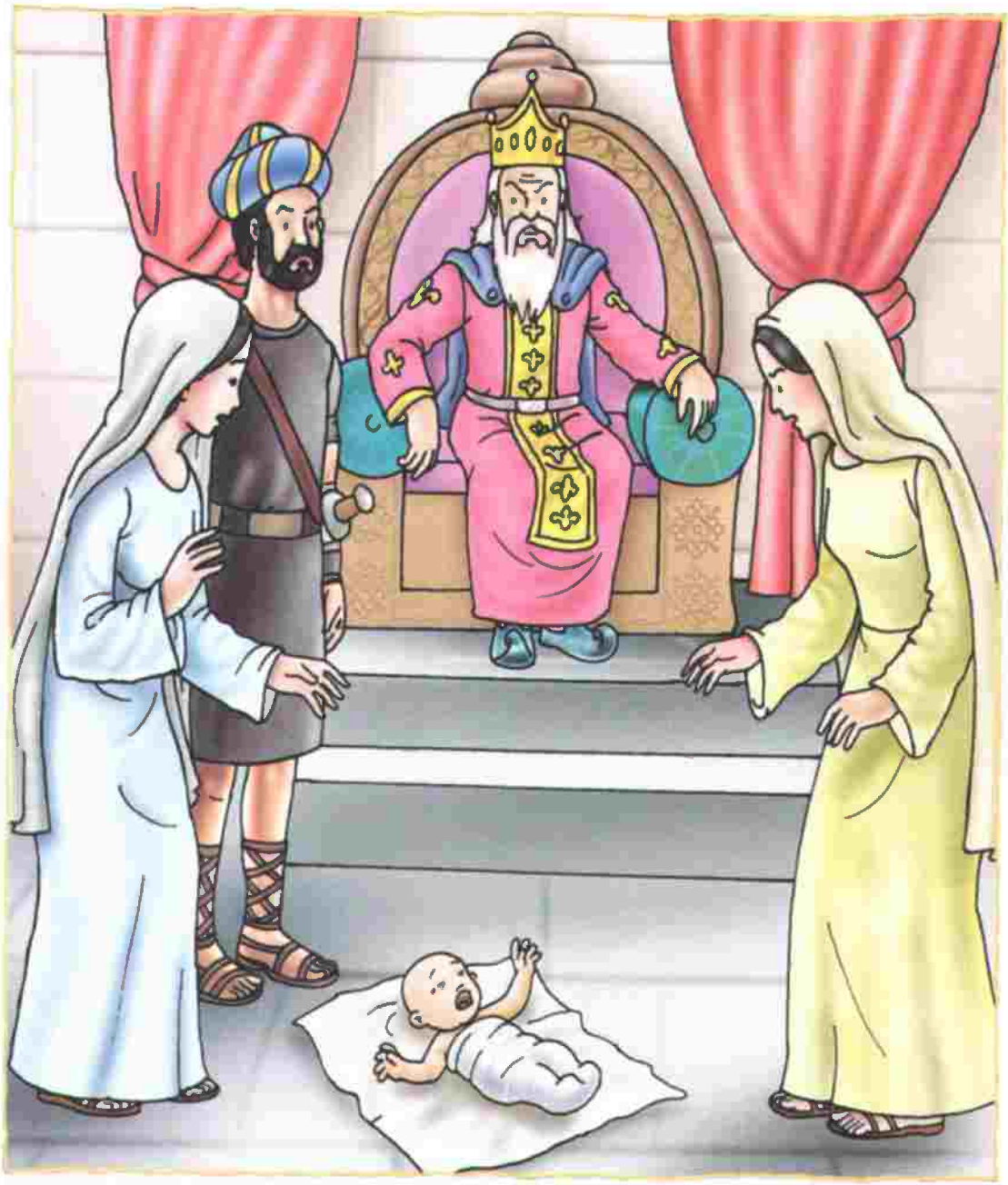

عَلَا صَوْتُ صُرَاخٍ وَزَعِيْقٍ تَسَبَّبَتْ بِهِ اِمْرَأَتَانِ خَارِجَ بَوَّابَاتِ قَصْرِ المَلِكِ (سُلَيْمَانَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ مُشْكِلَةٌ بَيْنَهُمَا، وَأَرَادَتَا مِنَ المَلِكِ (سُلَيْمَانَ) أَنْ يَحُلَّهَا، لِذَلِكَ سَمَحَ لَهُمَا الحُرَّاسُ بِدُخُوْلِ القَصْرِ، وَمُقَابَلَةِ المَلِكِ.

وَحِيْنَمَا شَاهَدَتَا المَلِكَ (سُلَيْمَانَ) صَاحَتْ إِحْدَاهُمَا: "يَا أَيُّهَا المَلِكُ الحَكِيْمُ، لَا أَبْغِي إِلَّا عَدَالَتَكَ، لَقَدْ رُزِقَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَّا بِطِفْلٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ أَثْنَاءَ نَوْمِي لَيْلَةَ البَارِحَةِ اِخْتَطَفَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ رَضِيْعِي، وَاِسْتَبْدَلَتْ طِفْلِي بِطِفْلِهَا الَّذِي تُوُفِّيَ، وَقَدْ أَتَتِ الآنَ لِتَقُوْلَ لِي: إِنَّ الَّذِي تُوُفِّيَ هُوَ اِبْنِي وَلَيْسَ اِبْنَهَا".

رَدَّتِ الأُمُّ الثَّانِيَةُ: "هَذَا لَيْسَ صَحِيْحاً يَا مَوْلَايَ، لِأَنَّ هَذَا الطِّفْلَ هُوَ اِبْنِي وَلَيْسَ لَدَيَّ أَدْنَى شَكٍّ فِي ذَلِكَ،

ثُمَّ مَا شَأْنِي وَشَأْنُ اِبْنِهَا؟ وَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَنْسَى أُمٌّ وَلِيْدَهَا؟!!"

كَانَ المَلِكُ (سُلَيْمَانَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَمَتَّعُ بِحِكْمَةٍ قَلَّ نَظِيْرُهَا، لِذَا فَقَدْ أَصْغَى إِلَى المَرْأَتَيْنِ بِصَبْرٍ وَأَنَاةٍ، وَمِنْ ثَمَّ أَمَرَ بِإِحْضَارِ سَيْفِهِ، وَحِيْنَمَا وَصَلَ السَّيْفُ خَاطَبَ المَرْأَةَ الَّتِي تَحْمِلُ الرَّضِيْعَ بِقَوْلِهِ: "أَعْطِ الطِّفْلَ لِلْحَاجِبِ"، وَمِنْ ثَمَّ أَمَرَ الحَاجِبَ بِقَوْلِهِ: "اِقْطَعِ الطِّفْلَ نِصْفَيْنِ، وَأَعْطِ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا شَطْراً مِنْهُ".

فَصَرَخَتِ المَرْأَةُ الثَّانِيَةُ: "تَوَقَّفْ! لَا تَقْتُلْ طِفْلِيَ الغَالِي، بَلْ دَعْ تِلْكَ المَرْأَةَ تَأْخُذْهُ، إِذْ أُفَضِّلُ أَنْ أَتَنَازَلَ عَنْهُ عَلَى أَنْ أُسْلِمَهُ لِلْقَتْلِ أَمَامَ عَيْنَيَّ".

وَعِنْدَهَا اِكْتَشَفَ النَّبِيُّ (سُلَيْمَانُ) عَلَيْهِ السَّلَامُ الحَقِيْقَةَ، فَقَالَ لِلْحَاجِبِ: "سَلِّمْ هَذَا الطِّفْلَ لِلْمَرْأَةِ الَّتِي طَلَبَتْ لَهُ الحَيَاةَ؛ لِأَنَّهَا أُمُّهُ الحَقِيْقِيَّةُ، فَلَا أُمَّ تَقْبَلُ بِأَنْ يَمُوْتَ وَلَدُهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَمَامَ عَيْنَيْهَا".

الذِّراعانِ المَفْتُوحَتانِ

كَانَ (سَلِيمٌ) فَلَّاحاً ثَرِيّاً، لَدَيْهِ اِثْنَانِ مِنَ البَنِيْنَ الَّذِيْنَ كَانُوا يَعِيْشُوْنَ مَعَهُ وَيُساعِدُوْنَهُ فِي إِدَارَةِ أَرَاضِيْهِ، وَمَعْلُوْمٌ أَنَّ ثَرْوَاتِ الأَبِ كُلَّهَا سَتَذْهَبُ بَعْدَ وَفَاتِهِ إِلَى هَذَيْنِ الاِبْنَيْنِ.

وَمَعَ مُرُوْرِ الأَيَّامِ أَصْبَحَ الاِبْنُ الأَصْغَرُ (يَحْيَى) يَكْرَهُ العَمَلَ فِي الزِّرَاعَةِ، فَقَرَّرَ الهِجْرَةَ إِلَى المَدِيْنَةِ، وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ صَارَحَ وَالِدُهُ بِقَوْلِهِ: "أَبَتِ! أَوَدُّ مِنْكَ أَنْ تَمْنَحَنِي حِصَّتِي مِنْ ثَرْوَاتِكَ؛ لِأَنَّنِي قَرَّرْتُ أَنْ أَمْضِيَ لِأَعِيْشَ فِي المَدِيْنَةِ".

وَلِأَنَّ الأَبَ كَانَ يُحِبُّ وَلَدَيْهِ حُبّاً جَمّاً، لِذَا فَقَدْ أَعْطَى اِبْنَهُ (يَحْيَى) حِصَّتَهُ مِنْ مَالِهِ، وَدَعَا لَهُ بِالبَرَكَةِ وَالتَّوْفِيْقِ، رَغْمَ أَنَّهُ فِي أَعْمَاقِهِ كَانَ يَشْعُرُ بِحُزْنٍ شَدِيْدٍ بِسَبَبِ تَصَرُّفِ اِبْنِهِ.

عِنْدَمَا وَصَلَ (يَحْيَى) إِلَى المَدِيْنَةِ ظَنَّ أَنَّ فِيْهَا كُلَّ مَا تَشْتَهِي نَفْسُهُ مِنَ المَلَذَّاتِ وَالأُمُوْرِ المُحَبَّبَةِ، فَقَدْ أَعْجَبَتْهُ حَيَاةُ الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ دَاخِلَ الفَنَادِقِ وَالخَانَاتِ، إِضَافَةً إِلَى الأُمُوْرِ المُمْتِعَةِ الَّتِي يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ أَنْ يُمَارِسَهَا فِي تِلْكَ البِيْئَةِ، وَهَكَذَا أَصْبَحَتِ المَدِيْنَةُ المَكَانَ الأَثِيْرَ عَلَى قَلْبِهِ.

وَلِأَنَّ (يَحْيَى) كَانَ يَمْلِكُ أَمْوَالاً طَائِلَةً؛ فَقَدْ سَعَى كَثِيْرُوْنَ إِلَى التَّعَرُّفِ عَلَيْهِ وَمُصَادَقَتِهِ، وَقَدْ كَانَ (يَحْيَى)

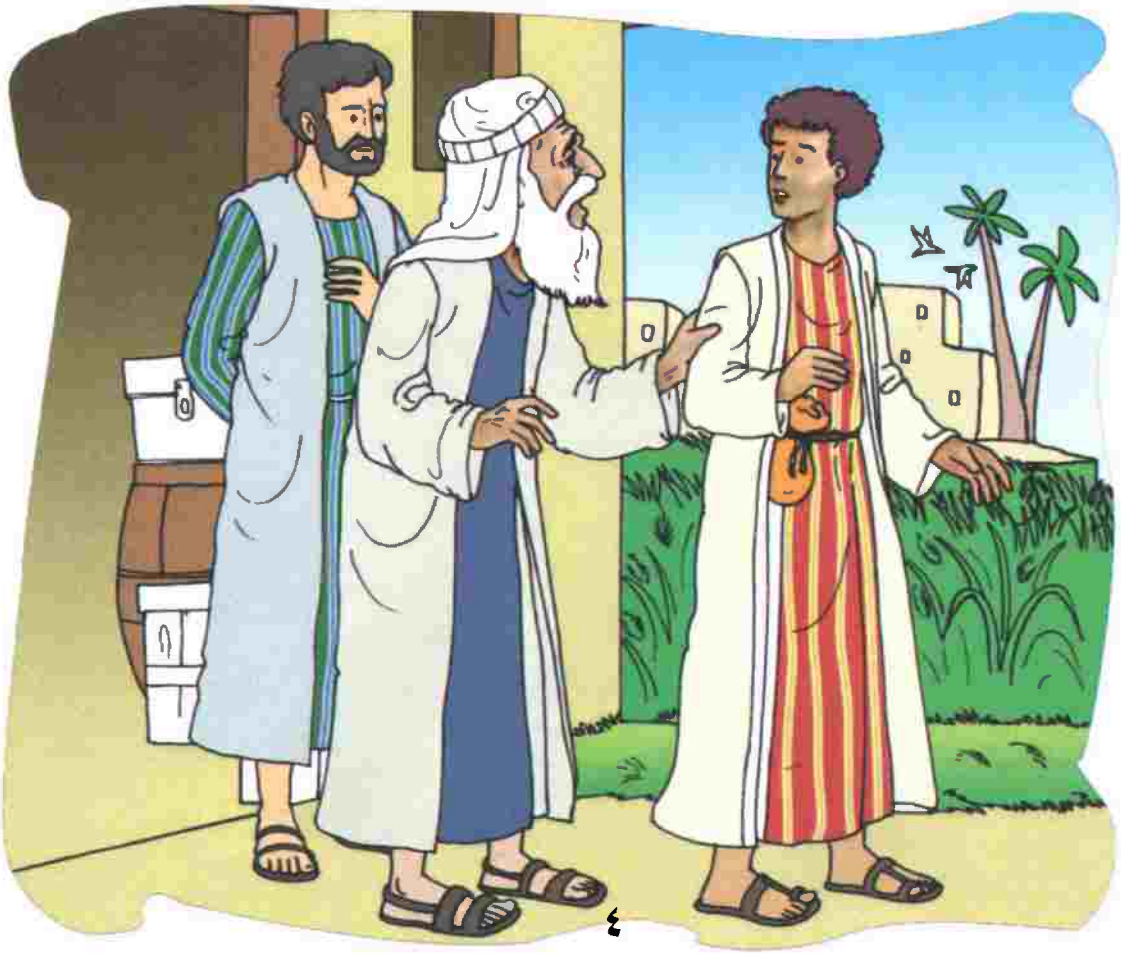

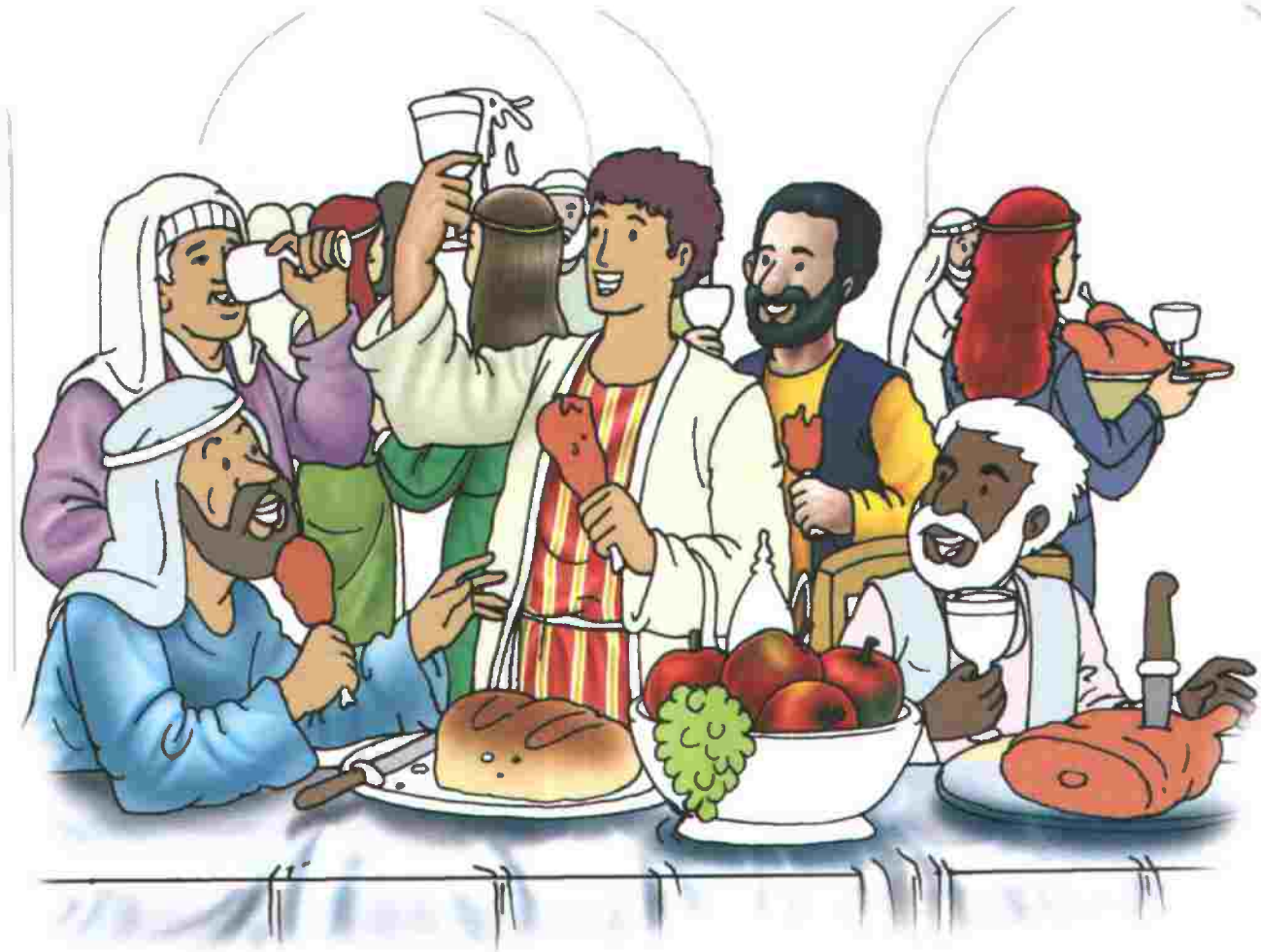

رَجُلاً أَحْمَقَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِهِ أَبَداً أَنَّهُمْ أَحَبُّوْهُ لِمَالِهِ وَلَيْسَ لِشَخْصِهِ، فَكَانَ كُلُّ مَا أَعْجَبَهُ فِي الأَمْرِ هُوَ الاِهْتِمَامُ الَّذِي أَحَاطَهُ هَؤُلَاءِ بِهِ، وَهَكَذَا أَخَذَ (يَحْيَى) يُنْفِقُ أَمْوَالَهُ عَلَى دَعْوَاتِ الطَّعَامِ الَّتِي كَانَ يُقِيْمُهَا مِنْ أَجْلِ هَؤُلَاءِ.

ثُمَّ أَتَى ذَلِكَ اليَوْمُ الَّذِي خَسِرَ فِيْهِ (يَحْيَى) كُلَّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ حِيْنَمَا اِكْتَشَفَ أَنَّهُ قَدْ أَفْلَسَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَحْسِبُ نَفَقَاتِهِ، وَبِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ كَم مِنَ الأَمْوَالِ تَبَقَّى لَدَيْهِ، فَأَصْبَحَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي مَاذَا بِوُسْعِهِ أَنْ يَفْعَلَ لِمُوَاجَهَةِ تِلْكَ الكَارِثَةِ، وَلَاسِيَّمَا بَعْدَمَا هَجَرَهُ كُلُّ أُوْلَئِكَ الأَشْخَاصِ الَّذِيْنَ كَانَ يُغْدِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَالِهِ، وَلَمْ يُحَاوِلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يُعِيْنَهُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ أَعْبَائِهِ، وَهَكَذَا وَجَدَ (يَحْيَى) نَفْسَهُ وَحِيْداً فِي أَحْلَكِ الأَوْقَاتِ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهِ.

وَفِي اليَوْمِ الَّذِي أَعْقَبَ إِفْلَاسَهُ، ذَاقَ (يَحْيَى) طَعْمَ الجُوْعِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِهِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ مَالٌ لِشِرَاءِ كِسْرَةِ خُبْزٍ، كَمَا طَلَبَتْ مِنْهُ إِدَارَةُ الفُنْدُقِ الَّذِي نَزَلَ فِيْهِ إِخْلَاءَ الغُرْفَةِ خِلَالَ أُسْبُوْعٍ وَاحِدٍ، وَهَكَذَا لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ مَالٌ لِشِرَاءِ مَا يَحْتَاجُهُ مِنْ طَعَامٍ، وَلَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ سَقْفٌ يُؤْوِيْهِ، وَلَا عَمَلٌ يَتَكَسَّبُ مِنْهُ، أَيْ إِنَّ وَضْعَهُ أَصْبَحَ مُزْرِياً جِدّاً.

وَأَخِيْراً، اِضْطُرَّ (يَحْيَى) لِلْعَمَلِ لِيَكْسِبَ قُوْتَ يَوْمِهِ، فَكَانَ العَمَلُ الَّذِي وَجَدَهُ هُوَ رِعَايَةُ الحَيَوَانَاتِ المَوْجُوْدَةِ فِي إِحْدَى المَزَارِعِ، وَلَمْ يَكُنْ يُحِبُّ ذَلِكَ العَمَلَ أَبَداً أَوْ يَسْتَمْتِعُ بِهِ، بَلْ لَمْ يَكُنْ مُعْتَاداً عَلَى أَنْ يُؤَدِّيَ عَمَلاً كَهَذَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ نَجْلَ رَجُلٍ ثَرِيٍّ، أَمَّا الآنَ فَلَمْ يَعُدْ يَصِلُهُ مِنْ أَصْحَابِ تِلْكَ المَزْرَعَةِ مَا يَكْفِيْهِ لِإِشْبَاعِ نَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ أَخَذَ (يَحْيَى) يَتَنَاوَلُ العَلَفَ المُخَصَّصَ لِلْبَهَائِمِ حِيْنَمَا اِشْتَدَّ عَلَيْهِ الجُوْعُ، بَيْنَمَا كَانَ الجَمِيْعُ فِي مَزْرَعَةِ وَالِدِهِ، بِمَنْ فِيْهِمُ الخَدَمُ، يَحْصُلُوْنَ عَلَى أَجْوَدِ أَنْوَاعِ الأَطْعِمَةِ وَأَطْيَبِهَا.

وَلَكِنْ بَعْدَ خَوْضِ تِلْكَ التَّجْرِبَةِ المَرِيْرَةِ أَصْبَحَ (يَحْيَى) يَشْعُرُ بِشُعُوْرِ وَالِدِهِ الَّذِي أَحَبَّهُ وَفَضَّلَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ يَوْماً: "لَقَدْ أَجْرَمْتُ بِحَقِّ وَالِدِي، لِذَا يَجِبُ أَنْ أَعُوْدَ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ لِأَطْلُبَ مِنْهُ الصَّفْحَ وَالغُفْرَانَ، كَمَا يُمْكِنُنِي الآنَ أَنْ أَطْلُبَ مِنْهُ العَمَلَ أَجِيْراً فِي مَزْرَعَتِهِ وَأَرَاضِيْهِ؛ وَذَلِكَ لِأَنِّي لَا أَسْتَحِقُّ أَنْ أَكُوْنَ ابْناً لِذَلِكَ الرَّجُلِ العَظِيْمِ".

وَفِي تِلْكَ الأَثْنَاءِ كَانَ الأَبُ يُفَكِّرُ فِي عَوْدَةِ ابْنِهِ العَزِيْزِ وَيَنْتَظِرُهَا بِفَارِغِ الصَّبْرِ، فَهُوَ لَمْ يَيْأَسْ يَوْماً وَاحِداً مِنْ عَوْدَتِهِ، فِيْمَا بَقِيَ ابْنُهُ الأَكْبَرُ (دَاوُدُ) مُخْلِصاً وَوَفِيّاً، وَهَذَا مَا كَانَ يُعَوِّضُهُ قَلِيْلاً عَنْ فِقْدَانِ ابْنِهِ الأَصْغَرِ، إِلَّا أَنَّ قَلْبَهُ كَانَ مُثْقَلاً بِالأَحْزَانِ لِفِرَاقِهِ وَبُعْدِهِ عَنْهُ وَعَنْ مَوْطِنِهِ.

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ رَأَى الأَبُ ابْنَهُ (يَحْيَى) قَادِماً مِنْ بَعِيْدٍ، فَتَرَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُرِعَ إِلَى مُلَاقَاتِهِ، وَحِيْنَمَا وَصَلَ إِلَيْهِ عَانَقَهُ بِحَرَارَةٍ وَقَالَ لَهُ: "بُنَيَّ.. يَا بُنَيَّ! لَطَالَمَا تَمَنَّيْتُ أَنْ تَعُوْدَ إِلَيَّ"، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنِ انْهَالَتِ الدُّمُوْعُ مِنْ عَيْنَيْهِ، فَنَادَى عَلَى الخَدَمِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُعِدُّوا وَلِيْمَةً كَبِيْرَةً عَلَى شَرَفِ ابْنِهِ.

وَبِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ (يَحْيَى) بِحَاجَةٍ لِطَلَبِ الصَّفْحِ مِنْ وَالِدِهِ؛ لِأَنَّهُ عَفَا عَنْهُ وَسَامَحَهُ مُنْذُ أَنْ غَادَرَهُ وَمَضَى إِلَى المَدِيْنَةِ، فَقَدْ كَانَ يُحِبُّهُ بِصِدْقٍ، وَإِذَا لَمْ يُعَبِّرْ تَرْحِيْبُهُ بِهِ عَنْ عَفْوِهِ عَنْهُ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، فَعَنْ أَيِّ شَيْءٍ يُعَبِّرُ إِذاً؟

وَلِذَلِكَ انْحَنَى (يَحْيَى) عَلَى قَدَمَيْ وَالِدِهِ لِيُقَبِّلَهُمَا، وَبَكَى تَعْبِيْراً عَنْ نَدَمِهِ وَأَلَمِهِ لِمَا تَسَبَّبَ بِهِ مِنْ أَذَىً لِوَالِدِهِ.

نِعْمَةُ الحُبِّ الحَقِيقِيّ

قِطْعَةٌ وَرَقِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَسَبْعٌ وَثَمانُوْنَ قِطْعَةً نَقْدِيَّةً مَعْدِنِيَّةً، هَذَا كُلُّ مَا فِي الأَمْرِ، سَتُوْنَ قِطْعَةً مِنْ تِلْكَ القِطَعِ كَانَتْ قُرُوْشاً تَمَّ ادِّخَارُهَا بِالقِطْعَةِ وَالقِطْعَتَيْنِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، كَانَتْ (دَلَالُ) تَعُدُّ مَا جَمَعَتْهُ مِنْ أَمْوَالٍ فِي حِصَّالَتِهَا الصَّغِيْرَةِ، وَهَذِهِ هِيَ المَرَّةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي تَعُدُّهَا فِيْهَا، فَاكْتَشَفَتْ أَنَّ كُلَّ مَا تَمْلِكُهُ هُوَ قِطْعَةٌ وَرَقِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَسَبْعٌ وَثَمانُوْنَ قِطْعَةً مَعْدِنِيَّةً فَقَطْ، مَعَ أَنَّ العِيْدَ سَيَأْتِي بَعْدَ يَوْمٍ وَاحِدٍ.

تُرَى مَا الَّذِي بِوُسْعِهَا القِيَامُ بِهِ؟ الجَوَابُ: لَا شَيْءَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ أَمَامَهَا سِوَى أَنْ تَرْتَمِيَ عَلَى تِلْكَ الأَرِيْكَةِ العَتِيْقَةِ وَتَصْرُخَ، وَهَذَا مَا فَعَلَتْهُ (دَلَالُ) فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ.

لَقَدْ كَانَتْ (دَلَالُ) تُعَانِي مَعَ زَوْجِهَا (جِهَادٍ) مِنْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يُؤَثِّرُ عَلَى مَحَبَّتِهِمَا بَعْضَهُمَا، رَغْمَ قِلَّةِ ذَاتِ اليَدِ الَّتِي كَانَا يُعَانِيَانِ مِنْهَا دَائِماً.

تَوَقَّفَتْ (دَلَالُ) عَنِ البُكَاءِ فَجْأَةً، وَنَهَضَتْ لِتَقِفَ قُرْبَ النَّافِذَةِ فَشَاهَدَتْ قِطَّةً رَمَادِيَّةَ اللَّوْنِ تَسِيْرُ فَوْقَ

سِيَاجٍ مَطْلِيٍّ بِاللَّوْنِ الرَّمَادِيِّ يُحِيْطُ بِبَاحَةٍ ذَاتِ لَوْنٍ رَمَادِيٍّ أَيْضاً، وَمِنْ هُنَا اِكْتَشَفَتْ أَنَّ عَالَمَهَا أَصْبَحَ رَمَادِيّاً، فَالعِيْدُ سَيَحُلُّ غَداً، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهَا سِوَى قِطْعَةٍ نَقْدِيَّةٍ وَرَقِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَسَبْعٌ وَثَمَانُوْنَ قِطْعَةً مَعْدِنِيَّةً لَا تَكْفِيْهَا لِشِرَاءِ هَدِيَّةٍ لِزَوْجِهَا الحَبِيْبِ فِي العِيْدِ، وَلَكَمْ قَضَتْ مِنَ السَّاعَاتِ وَهِيَ تُفَكِّرُ بِشِرَاءِ شَيْءٍ مُمَيَّزٍ لَهُ يَوْمَ العِيْدِ.

وَبَيْنَمَا كَانَتْ (دَلَالُ) تَسْتَشْعِرُ عَجْزَهَا إِزَاءَ ذَلِكَ المَوْقِفِ، وَقَعَتْ عَيْنَاهَا مُصَادَفَةً عَلَى المِرْآةِ المَوْضُوْعَةِ فَوْقَ طَاوِلَةِ الزِّيْنَةِ، فَابْتَعَدَتْ عَنِ النَّافِذَةِ فَجْأَةً لِتَقِفَ أَمَامَ مِرْآتِهَا، وَلِتَكْتَشِفَ كَمْ كَانَتْ عَيْنَاهَا مُتَوَقِّدَتَيْنِ بِالحَمَاسِ، إِلَّا أَنَّ لَوْنَهَا قَدْ تَغَيَّرَ حِيْنَمَا حَلَّتْ شَعْرَهَا، وَتَرَكَتْهُ يَنْسَدِلُ بِحُرِّيَّةٍ نَحْوَ الأَسْفَلِ.

ثَمَّةَ شَيْئَانِ عَزِيْزَانِ يَمْتَلِكُهُمَا كُلٌّ مِنْ (جِهَادٍ) وَ(دَلَالَ)، وَيُعَدَّانِهِمَا مَصْدَرَ فَخْرٍ لَهُمَا، أَوَّلُهُمَا السَّاعَةُ الثَّمِيْنَةُ الَّتِي وَرِثَهَا (جِهَادٌ) عَنْ أَبِيْهِ، وَوَرِثَهَا أَبُوْهُ عَنْ جَدِّهِ، أَمَّا الشَّيْءُ الآخَرُ فَهُوَ شَعْرُ (دَلَالَ) الجَمِيْلُ.

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَتْ (دَلَالُ) تَنْظُرُ إِلَى شَعْرِهَا الضَّائِعِ المُتَأَلِّقِ وَهُوَ يَتَمَوَّجُ فَوْقَ ظَهْرِهَا مُتَجَاوِزاً

رِدْفَيْهَا وُصُوْلاً إِلَى رُكْبَتَيْهَا، إِلَّا أَنَّهَا سَرْعَانَ مَا رَبَطَتْهُ عَلَى عَجَلٍ حِيْنَمَا سَقَطَتْ دَمْعَةٌ أَوِ اثْنَتَانِ مِنْ عَيْنَيْهَا فَوْقَ السَّجَّادَةِ الحَمْرَاءِ القَدِيْمَةِ.

اِرْتَدَتْ (دَلَالُ) بَعْدَ ذَلِكَ سُتْرَتَهَا البُنِّيَّةَ العَتِيْقَةَ مَعَ طَاقِيَّتِهَا البُنِّيَّةِ القَدِيْمَةِ، وَخَرَجَتْ مِنَ المَنْزِلِ، مَعَ أَنَّ دُمُوْعاً أُخْرَى كَانَتْ مَا تَزَالُ تَتَرَقْرَقُ دَاخِلَ عَيْنَيْهَا.

ثُمَّ تَوَقَّفَتْ عِنْدَ مَتْجَرٍ كُتِبَ عَلَيْهِ عِبَارَةُ: "بَيْعُ مُخْتَلِفِ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ" فَصَعِدَتِ الدَّرَجَ، وَوَقَفَتْ أَمَامَ السَّيِّدَةِ المَسْؤُوْلَةِ عَنْ إِدَارَةِ ذَلِكَ المَتْجَرِ، وَوَجَّهَتْ لَهَا السُّؤَالَ قَائِلَةً: "أَتَرْغَبِيْنَ بِشِرَاءِ شَعْرِي؟"

أَجَابَتْهَا السَّيِّدَةُ: "اِخْلَعِي طَاقِيَّتَكِ أَوَّلاً لِأَرَى شَعْرَكِ".

وَهُنَا انْسَدَلَ شَعْرُ (دَلَالَ) الذَّهَبِيُّ الكَثِيْفُ، فَهَتَفَتِ السَّيِّدَةُ وَهِيَ تُعَايِنُ شَعْرَ (دَلَالَ): "سَأَشْتَرِيْهِ بِقِطْعَتَيْنِ وَرَقِيَّتَيْنِ".

ثُمَّ بَدَأَتِ السَّيِّدَةُ بِقَصِّ شَعْرِ (دَلَالَ)، فَحَاوَلَتْ حَبْسَ دُمُوْعِهَا لِتَبْدُوَ أَشْجَعَ مِمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ.

قَضَتْ (دَلَالُ) السَّاعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَعْقَبَتَا عَمَلِيَّةَ قَصِّ شَعْرِهَا بِسَعَادَةٍ وَبَهْجَةٍ غَامِرَةٍ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ خِلَالَهُمَا تَبْحَثُ عَنْ هَدِيَّةٍ لِزَوْجِهَا (جِهَاد).

وَفِي نِهَايَةِ المَطَافِ عَثَرَتْ (دَلَالُ) عَلَى الهَدِيَّةِ الَّتِي تُنَاسِبُ (جِهَاداً) وَلَا تُنَاسِبُ أَحَداً سِوَاهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَثِيْلٌ فِي المَتَاجِرِ الأُخْرَى الَّتِي بَحَثَتْ فِيْهَا (دَلَالُ)، وَكَانَتْ تِلْكَ الهَدِيَّةُ سِلْسِلَةً مُزَخْرَفَةً مَصْنُوْعَةً مِنَ (البلاتين)، وَهِيَ ذَاتُ تَصْمِيْمٍ عَادِيٍّ لِسَاعَةِ (جِهَادٍ) الثَّمِيْنَةِ، وَقَدْ كَانَ مَنْظَرُهَا رَائِعاً، حَيْثُ سَارَعَتْ

(دَلَالُ) إِلَى شِرَائِهَا فَوْرَ مُعَايَنَتِهَا؛ لِأَنَّهَا تُنَاسِبُ سَاعَةَ (جِهَادٍ) تَمَاماً، فَابْتَاعَتْهَا (دَلَالُ) بِمَبْلَغِ إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ قِطْعَةً وَرَقِيَّةً، ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِسِلْسِلَةِ السَّاعَةِ، وَمَا تَبَقَّى لَهَا مِنْ مَالٍ وَعَادَتْ مُسْرِعَةً إِلَى المَنْزِلِ.

وَفِي طَرِيْقِ عَوْدَتِهَا إِلَى البَيْتِ، أَخَذَتْ (دَلَالُ) تُفَكِّرُ بِمَدَى سَعَادَةِ زَوْجِهَا عِنْدَمَا سَيُشَاهِدُ السِّلْسِلَةَ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ بِمَقْدُوْرِهِ الآنَ أَنْ يَنْظُرَ فِي سَاعَتِهِ بِكُلِّ فَخْرٍ وَزَهْوٍ، وَلَنْ يَشْعُرَ بِالخِزْيِ بَعْدَ اليَوْمِ مِنْ حِزَامِهَا الجِلْدِيِّ المُهْتَرِئِ.

غَيْرَ أَنَّ السُّرُوْرَ الَّذِي اعْتَرَى (دَلَالَ) قَدْ تَبَدَّدَ فَوْرَ وُصُوْلِهَا إِلَى المَنْزِلِ، وَذَلِكَ حِيْنَمَا نَظَرَتْ إِلَى صُوْرَتِهَا المُنْعَكِسَةِ فِي المِرْآةِ فَحَدَّثَتْ نَفْسَهَا قَائِلَةً: "كَمْ سَأَكُوْنُ مَحْظُوْظَةً إِنْ لَمْ يَغْضَبْ زَوْجِي مِنْ فَعْلَتِي هَذِهِ".

وَلَمْ يَتَأَخَّرْ (جِهَادٌ) عَنْهَا طَوِيْلاً، وَقَدْ بَقِيَتْ (دَلَالُ) تَنْتَظِرُهُ وَبِيَدِهَا سِلْسِلَةُ السَّاعَةِ عِنْدَ زَاوِيَةِ الطَّاوِلَةِ، قُرْبَ البَابِ الَّذِي يَأْتِي مِنْهُ دَائِماً، لَكِنَّهَا حِيْنَمَا سَمِعَتْ وَقْعَ خُطُوَاتِهِ عَلَى الأَدْرَاجِ هَذِهِ المَرَّةَ أَصَابَهَا شُحُوْبٌ شَدِيْدٌ خَوْفاً مِنْ رَدَّةِ فِعْلِهِ المُحْتَمَلَةِ.

لِذَا أَخَذَتْ تُنَاجِي رَبَّهَا قَائِلَةً: "أَسْأَلُكَ يَا رَبِّ أَنْ تُبْقِيَنِي جَمِيْلَةً فِي عَيْنَيْهِ".

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ فُتِحَ البَابُ، وَدَخَلَ (جِهَادٌ) إِلَى البَيْتِ بِمِعْطَفِهِ المُهْتَرِئِ الَّذِي لَبِسَهُ دُوْنَ أَنْ يَرْتَدِيَ قُفَّازَاتٍ، وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ التَّعَبُ وَالإِرْهَاقُ رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَتَجَاوَزِ الثَّانِيَةَ وَالعِشْرِيْنَ مِنَ العُمْرِ، وَهِيَ سِنٌّ مُبَكِّرَةٌ لِلزَّوَاجِ وَتَحَمُّلِ أَعْبَاءِ أُسْرَةٍ بِأَكْمَلِهَا.

إِلَّا أَنَّ (جِهَاداً) تَوَقَّفَ عِنْدَ البَابِ، وَأَدَامَ النَّظَرَ إِلَى زَوْجِهِ (دَلَالَ) دُوْنَ أَنْ يَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ، وَظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ تَعَابِيْرُ لَمْ تَسْتَطِعْ (دَلَالُ) فَكَّ رُمُوْزِهَا، إِلَّا أَنَّهَا أَشْعَرَتْهَا بِالخَوْفِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْكِسُ حَالَةً مِنَ الغَضَبِ، أَوِ الدَّهْشَةِ، أَوِ الاسْتِنْكَارِ، أَوِ الذُّعْرِ، أَوْ أَيِّ مَشَاعِرَ أُخْرَى لَمْ تَكُنْ (دَلَالُ) مُسْتَعِدَّةً لِتَحَمُّلِ نَتَائِجِهَا، بَلْ أَخَذَ (جِهَادٌ) يُحَدِّقُ بِهَا بِنَظَرَاتٍ غَرِيْبَةٍ. فَهَتَفَتْ (دَلَالُ): "عَزِيْزِي (جِهَادُ)، مَا الَّذِي دَهَاكَ؟ لَا تَنْظُرْ إِلَيَّ هَكَذَا، كُلُّ مَا فِي الأَمْرِ أَنِّي قَصَصْتُ شَعْرِي وَبِعْتُهُ؛ لِأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ أَتَخَيَّلُ أَنْ يَمُرَّ العِيْدُ دُوْنَ أَنْ أُقَدِّمَ لَكَ هَدِيَّةً بِهَذِهِ المُنَاسَبَةِ، لَا تَهْتَمَّ، سَيَعُوْدُ شَعْرِي طَوِيْلاً مِنْ جَدِيْدٍ، فَشَعْرِي يَنْمُو بِسُرْعَةٍ عَجِيْبَةٍ، هَيَّا قُلْ لِي: "عِيْدٌ سَعِيْدٌ"، وَدَعْنَا نَحْتَفِلْ سَوِيَّةً، أَتَعْرِفُ مَا الهَدِيَّةُ الَّتِي أَحْضَرْتُهَا مِنْ أَجْلِكَ؟"

وَهُنَا أَتَى سُؤَالُ (جِهَادٍ): "هَلْ قَصَصْتِ شَعْرَكِ؟ وَهَلْ يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ شَعْرَكِ لَمْ يَعُدْ طَوِيْلاً؟" قَالَ ذَلِكَ وَقَدْ بَدَا عَلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَوْعِبْ مَا كَانَ يَجْرِي حَوْلَهُ.

رَدَّتْ (دَلَالُ): "لَقَدْ قَصَصْتُ شَعْرِي وَبِعْتُهُ، وَلَمْ يَعُدْ شَعْرِي طَوِيْلاً كَمَا كَانَ، لَكِنْ أَلَا تُحِبُّنِي كَمَا أَنَا الآنَ؟ فَأَنَا لَمْ أَتَغَيَّرْ حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَعُدْ شَعْرِي طَوِيْلاً، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ هَيَّا يَا عَزِيْزِي فَاللَّيْلَةُ لَيْلَةُ عِيْدٍ، كُنْ طَيِّباً مَعِي، فَأَنَا لَمْ أَبِعْهُ إِلَّا مِنْ أَجْلِكَ، فَقَدْ يُمْكِنُ لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَعُدَّ شَعْرِي شَعْرَةً شَعْرَةً، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقِيْسَ مِقْدَارَ حُبِّي لَكَ يَا زَوْجِيَ العَزِيْزَ". وَسُرْعَانَ مَا صَحَا (جِهَادٌ) مِنْ حَالَةِ الذُّهُوْلِ الَّتِي أَصَابَتْهُ، فَاحْتَوَى (دَلَالَ) بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ يُهِمُّهُ سَوَاءٌ أَحْصَلَ عَلَى ثَمَانِيَةِ قِطَعٍ وَرَقِيَّةٍ فِي السَّنَةِ، أَمْ مِلْيُوْنَ مِنْهَا، فَكِلَاهُمَا أَصْبَحَ عِنْدَهُ سَوَاءً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الحُبَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْتَرَى بِالمَالِ.

ثُمَّ أَخْرَجَ (جِهَادٌ) عُلْبَةً مِنْ جَيْبِهِ، وَخَاطَبَ زَوْجَهُ قَائِلاً: "لَا تُخْطِئِي بِحَقِّي يَا عَزِيزَتِي، فَأَنَا لَا أَظُنُّ أَنَّ قِصَّةَ شَعْرِكِ سَتَجْعَلُ مِنْكِ امْرَأَةً أُخْرَى، أَوْ سَتُغَيِّرُ مِنْ حُبِّي لَكِ، لَكِنَّكِ عِنْدَمَا تَفْتَحِينَ هَذِهِ العُلْبَةَ سَتَعْرِفِينَ سَبَبَ ذُهُولِي فِي بِدَايَةِ الأَمْرِ".

عِنْدَهَا مَزَّقَتْ (دَلَالُ) وَرَقَ الهَدَايَا وَالشَّرِيطَ الَّذِي لُفَّتْ بِهِ العُلْبَةُ بِأَصَابِعِهَا الَّتِي أَصَابَهَا الخَدَرُ، وَفَجْأَةً أَطْلَقَتْ صَرْخَةَ فَرَحٍ قَوِيَّةً، أَعْقَبَتْهَا حَالَةٌ مِنَ التَّحَسُّرِ، سَرْعَانَ مَا جَعَلَتْهَا تَبْكِي وَتَنْتَحِبُ، وَتُطَالِبُ (جِهَاداً) بِأَنْ يُوَاسِيَهَا وَيُخَفِّفَ عَنْهَا.

كَانَتِ العُلْبَةُ تَحْتَوِي عَلَى مَجْمُوعَةِ أَمْشَاطٍ أُعْجِبَتْ بِهَا (دَلَالُ) فِي أَحَدِ الأَيَّامِ عِنْدَمَا رَأَتْهَا فِي وَاجِهَةِ أَحَدِ المَحَالِّ، لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الأَمْشَاطُ جَمِيلَةً حَقّاً، فَقَدْ كَانَتْ مَصْنُوعَةً مِنْ عَظْمِ أَصْدَافِ السَّلَاحِفِ، كَمَا كَانَتْ حَوَافُّهَا مُطَعَّمَةً بِالجَوَاهِرِ وَقِطَعِ الزِّينَةِ، وَقَدِ اشْتَرَاهَا (جِهَادٌ) لِزَوْجِهِ الحَبِيبَةِ لِتُرَتِّبَ بِهَا شَعْرَهَا الجَمِيلَ.

عِنْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ (دَلَالَ) إِلَّا أَنْ عَانَقَتْ زَوْجَهَا بِحَرَارَةٍ فَتْرَةً طَوِيلَةً، وَفِي نِهَايَةِ العِنَاقِ تَمَكَّنَتْ أَخِيراً مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ اغْرَوْرَقَتَا بِالدُّمُوعِ، وَابْتِسَامَةٍ خَافِتَةٍ، ثُمَّ هَمَسَتْ قَائِلَةً: "لَا تَقْلَقْ لِأَنَّ شَعْرِي يَنْمُو بِسُرْعَةٍ يَا عَزِيزِي".

بَعْدَ ذَلِكَ بَسَطَتْ (دَلَالُ) رَاحَةَ كَفِّهَا بِلَهْفَةٍ لِتُرِيَ (جِهَاداً) هَدِيَّتَهُ المَصْنُوعَةَ مِنَ المَعْدِنِ الَّذِي أَخَذَ يَتَوَقَّدُ مِنْ فَرْطِ المَحَبَّةِ وَالسُّرُورِ الَّذِي سَادَ أَجْوَاءَهُمَا.

ثُمَّ صَاحَتْ (دَلَالُ): "أَلَيْسَتْ جَمِيلَةً؟ لَقَدْ فَتَّشْتُ فِي طُولِ المَدِينَةِ وَعَرْضِهَا إِلَى أَنْ تَمَكَّنْتُ مِنْ شِرَاءِ هَدِيَّتِكَ، وَهَكَذَا بِوُسْعِكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى سَاعَتِكَ مِئَةَ مَرَّةٍ فِي اليَوْمِ، وَالآنَ أَعْطِنِي سَاعَتَكَ لِأُجَرِّبَ هَذِهِ السِّلْسِلَةَ عَلَيْهَا".

بَيْدَ أَنَّ (جِهَاداً) ارْتَمَى عَلَى الأَرِيكَةِ، وَأَخَذَ يَبْتَسِمُ لِزَوْجِهِ بَدَلاً مِنْ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا السَّاعَةَ.

ثُمَّ قَالَ لَهَا: "حَبِيبَتِي (دَلَالُ)، مَا رَأْيُكِ بِأَنْ نَضَعَ هَدَايَا العِيدِ جَانِباً، فَصَحِيحٌ أَنَّ تِلْكَ الهَدَايَا قَدْ تَبْدُو مُفِيدَةً، إِلَّا أَنَّنِي أُحِبُّ أَنْ أُخْبِرَكِ بِأَنِّي بِعْتُ سَاعَتِي لِأَحْصُلَ عَلَى المَالِ، وَأَشْتَرِيَ لَكِ تِلْكَ الأَمْشَاطَ، وَالآنَ مَا رَأْيُكِ بِكُوبٍ مِنَ القَهْوَةِ؟"

عَزِيزِي القَارِئَ:

العِيدُ مُنَاسَبَةٌ لِإِظْهَارِ المَحَبَّةِ وَالوُدِّ وَخَلْقِ إِحْسَاسٍ بِالمُشَارَكَةِ، وَلِتَبَادُلِ الهَدَايَا الَّتِي تُعَبِّرُ عَنْ مَدَى الاهْتِمَامِ بِالطَّرَفِ الآخَرِ، وَقَدْ عَرَضْنَا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ القِصَّةِ حِكَايَةَ الشَّابَّيْنِ المُتَسَرِّعَيْنِ اللَّذَيْنِ تَخَلَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ أَعَزِّ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ أَجْلِ الآخَرِ، وَأَظُنُّ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الأَشْخَاصِ هُوَ الَّذِي يَتَمَتَّعُ بِالحِكْمَةِ مِنْ بَيْنِ أُلُوفِ النَّاسِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ الهَدَايَا وَيَسْتَلِمُونَهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ حُبَّهُمَا حُبٌّ صَادِقٌ وَحَقِيقِيٌّ.

خُفُّ (رودوبيس) الذَّهَبِيُّ

يُحْكَى أَنَّهُ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ عَاشَتْ فَتَاةٌ جَمِيلَةٌ فِي مِصْرَ القَدِيمَةِ، وَكَانَتْ تُدْعَى (رودوبيس) وَيَعْنِي اِسْمُهَا فِي الإِغْرِيقِيَّةِ "ذَاتُ الخَدَّيْنِ الوَرْدِيَّيْنِ"، وَكَانَتْ تِلْكَ الفَتَاةُ صَالِحَةً، طَيِّبَةَ النِّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ.

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ أَرَادَتْ (رودوبيس) أَنْ تَغْتَسِلَ فِي نَهْرِ النِّيلِ، فَتَرَكَتْ رِدَاءَهَا، وَخُفَّيْهَا الذَّهَبِيَّيْنِ عَلَى ضِفَةِ النَّهْرِ، وَشَرَعَتْ تَغْتَسِلُ، وَتَسْتَمْتِعُ بِمِيَاهِ النِّيلِ البَارِدَةِ، وَفَجْأَةً رَأَتْ نَسْراً عَظِيمَ الجَنَاحَيْنِ يَهْبِطُ قُرْبَ ضِفَافِ النَّهْرِ، ثُمَّ يَنْقَضُّ عَلَى أَحَدِ خُفَّيْهَا، وَيَطِيرُ بِهِ بَعِيداً، وَلَمْ تَسْتَطِعِ المِسْكِينَةُ حِينَهَا أَنْ تَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ لِمَنْعِهِ.

وَفِي الوَقْتِ الَّذِي أَمْضَتْهُ تِلْكَ الفَتَاةُ فِي الاِسْتِحْمَامِ، كَانَ رَجُلٌ قَدِ اِعْتُقِلَ، ثُمَّ أُخِذَ لِيَمْثُلَ أَمَامَ أَمِيرِ مِصْرَ بَعْدَمَا قُيِّدَ بِالسَّلَاسِلِ، وَكُلُّ ذَنْبِهِ أَنَّهُ لَمْ يَدْفَعِ الضَّرَائِبَ لِلدَّوْلَةِ.

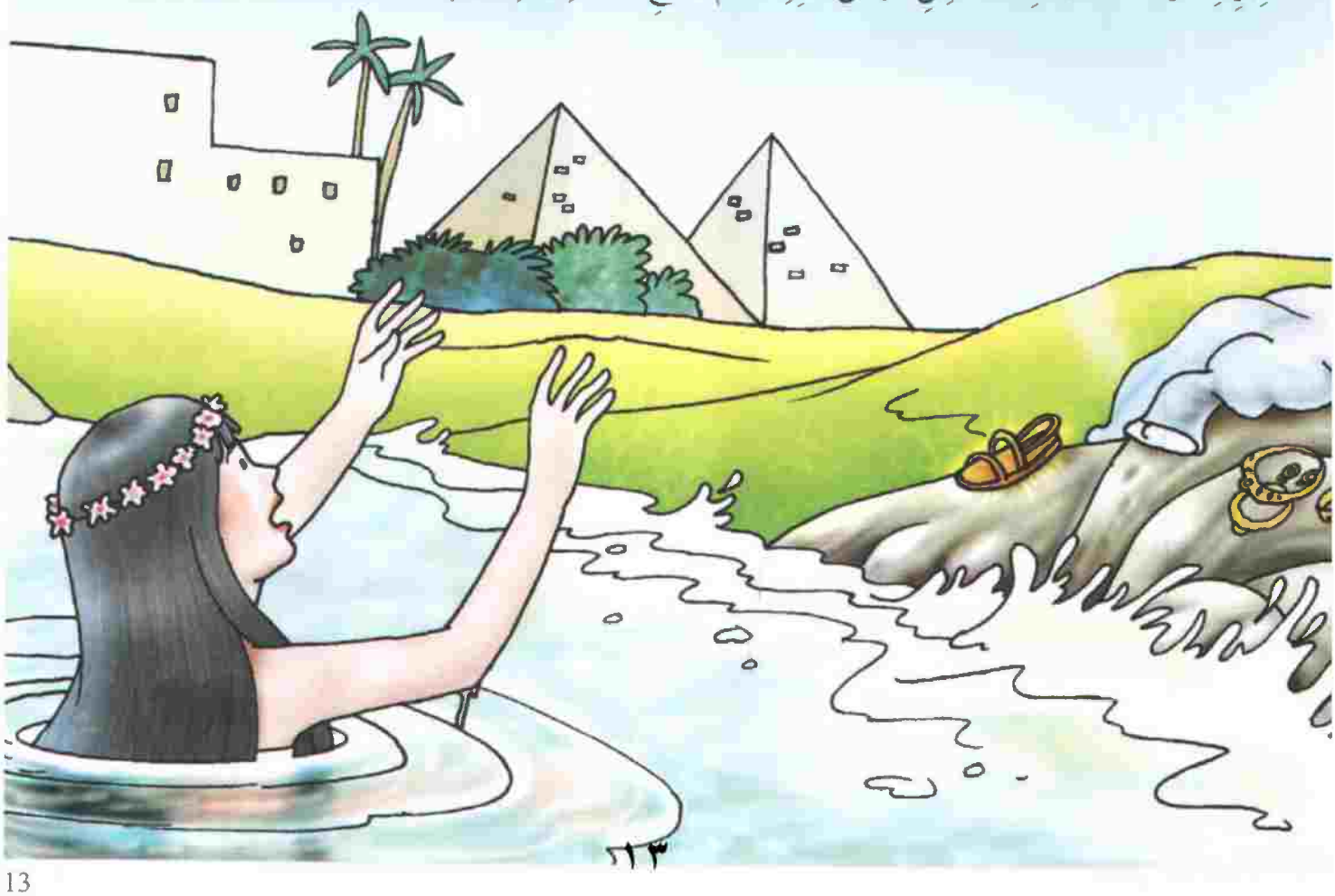

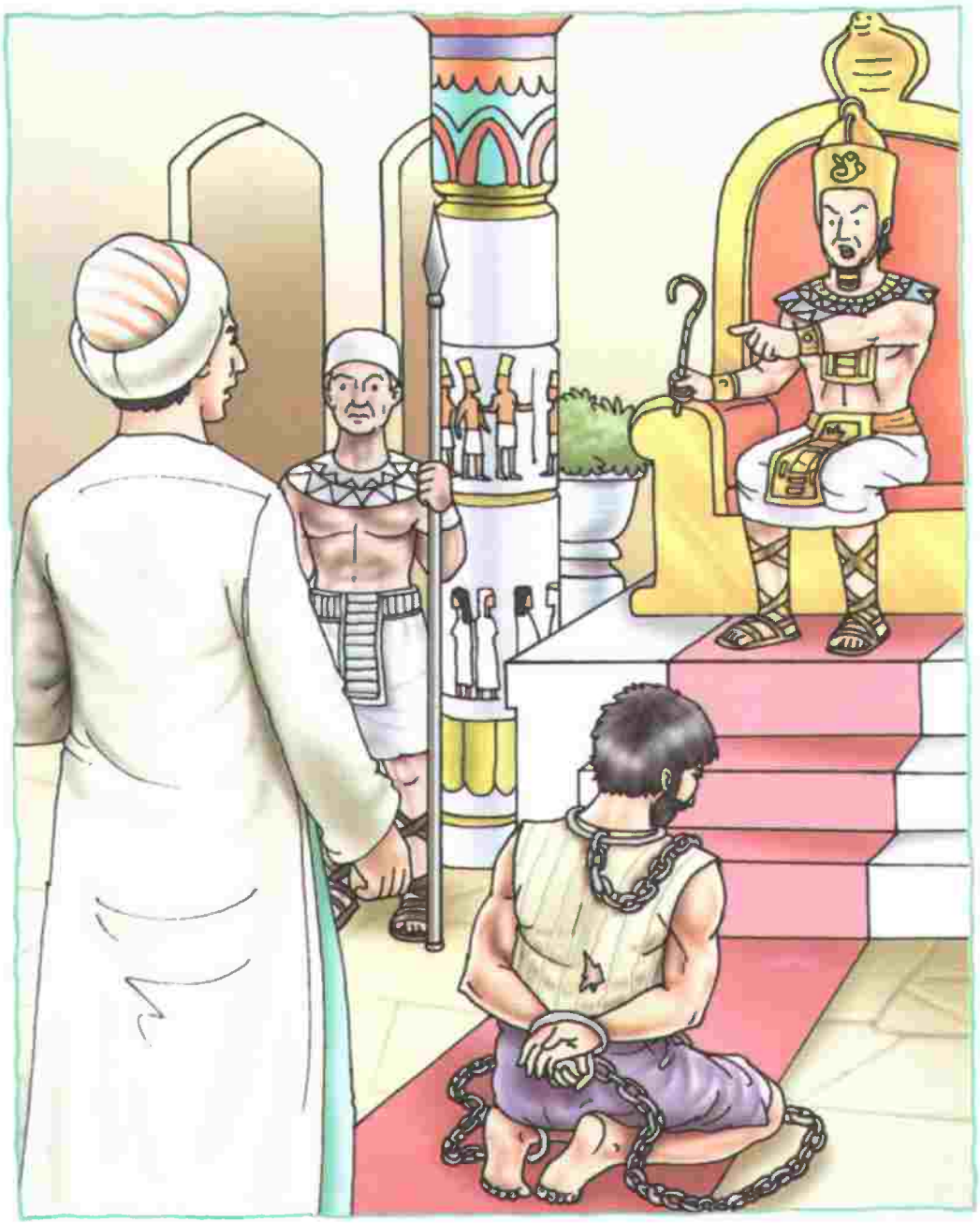

فَأَخَذَ الرَّجُلُ يَتَوَسَّلُ قَائِلاً: "الرَّحْمَةَ يَا مَوْلَايَ الرَّحْمَةَ! لَقَدْ كَانَ المَحْصُوْلُ قَلِيْلاً هَذَا العَامَ، فَقَدْ أَتَتِ الدِّيْدَانُ وَالجُرْذَانُ عَلَى مَا زَرَعْتُهُ يَا سَيِّدِي، وَلِأَنِّي لَمْ أَجِدْ مَا أَدْفَعُهُ لِجَابِي الضَّرَائِبِ فَقَدْ ضَرَبَنِي، وَقَيَّدَنِي بِالسَّلَاسِلِ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِزَوْجَتِي، وَجَعَلَنِي أَتْرُكُ أَبْنَائِي وَبَنَاتِي ضَحِيَّةً لِلْجُوْعِ حَتَّى المَوْتِ".

وَلَمَّا سَمِعَ الأَمِيْرُ الطَّيِّبُ هَذَا الكَلَامَ تَمَلَّكَهُ غَضَبٌ شَدِيْدٌ، فَصَاحَ بِجَابِي الضَّرَائِبِ: "اُغْرُبْ عَنْ وَجْهِي يَا هَذَا، لَنْ تَعْمَلَ جَابِياً لَدَيَّ بَعْدَ اليَوْمِ، أَنَا أُحِبُّ أَبْنَاءَ شَعْبِي، وَأَعْطِفُ عَلَيْهِمْ، وَلَا أَسْمَحُ لِأَحَدٍ بِظُلْمِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ".

بَعْدَ ذَلِكَ أَطْلَقَ الأَمِيْرُ سَرَاحَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الفَقِيْرِ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى دَارِهِ مُحَمَّلاً بِالهَدَايَا لِزَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ.

وَفَوْرَ خُرُوْجِ الرَّجُلِ مِنَ القَصْرِ أَصَابَ الأَمِيْرَ حُزْنٌ عَمِيْقٌ،

وَأَخَذَ يُفَكِّرُ فِي نَفْسِهِ؛ فَصَحِيْحٌ أَنَّ ذَلِكَ الفَلَّاحَ فَقِيْرٌ، إِلَّا أَنَّ لَدَيْهِ زَوْجَةً وَأَطْفَالاً يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُ، أَمَّا هُوَ فَلَمْ يَجِدْ -مَعَ أَنَّهُ الأَمِيْرُ- مَنْ يُحِبُّهُ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ حُبّاً لَا يَشُوْبُهُ طَمَعٌ فِي مُلْكِهِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ الأَمِيْرُ جَالِساً يُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ الأَمْرِ حَزِيْناً، وَيَحْلُمُ أَنْ يَجِدَ فَتَاةً طَيِّبَةً وَصَادِقَةً، تُبَادِلُهُ الحُبَّ، دَخَلَ نَسْرٌ إِلَى قَصْرِهِ، وَأَلْقَى فِي حِجْرِهِ خُفّاً ذَهَبِيّاً صَغِيْراً.

فَتَعَجَّبَ الأَمِيْرُ مِنْ ذَلِكَ، وَتَسَاءَلَ: "لِمَنْ هَذَا الخُفُّ الصَّغِيْرُ؟ لَابُدَّ أَنَّ صَاحِبَتَهُ فَتَاةٌ جَمِيْلَةٌ، وَرَشِيْقَةُ القَدِّ".

فَأَرْسَلَ الأَمِيْرُ مَنْ يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبَةِ ذَلِكَ الخُفِّ فِي طُوْلِ البِلَادِ وَعَرْضِهَا، وَيَطْلُبُ مِنْ الفَتَيَاتِ فِي البِلَادِ أَنْ يُجَرِّبْنَ الخُفَّ، وَمَنْ يَتَبَيَّنْ أَنَّهَا صَاحِبَةُ الخُفِّ سَيَتَزَوَّجُهَا المَلِكُ.

تَقَدَّمَتْ نِسَاءٌ كَثِيْرَاتٌ، ثَرِيَّاتٌ وَفَقِيْرَاتٌ، جَمِيْلَاتٌ وَقَبِيْحَاتٌ لِيُجَرِّبْنَ ذَلِكَ الخُفَّ عَسَى أَنْ تُصْبِحَ إِحْدَاهُنَّ الأَمِيْرَةَ المُرْتَقَبَةَ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ الخُفَّ الصَّغِيْرَ لَمْ يُنَاسِبْ أَيَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ.

فَحَزِنَ الأَمِيْرُ حُزْناً شَدِيْداً، وَفَقَدَ الأَمَلَ فِي العُثُوْرِ عَلَى الفَتَاةِ الَّتِي كَانَ يَحْلُمُ بِهَا طِيْلَةَ حَيَاتِهِ.

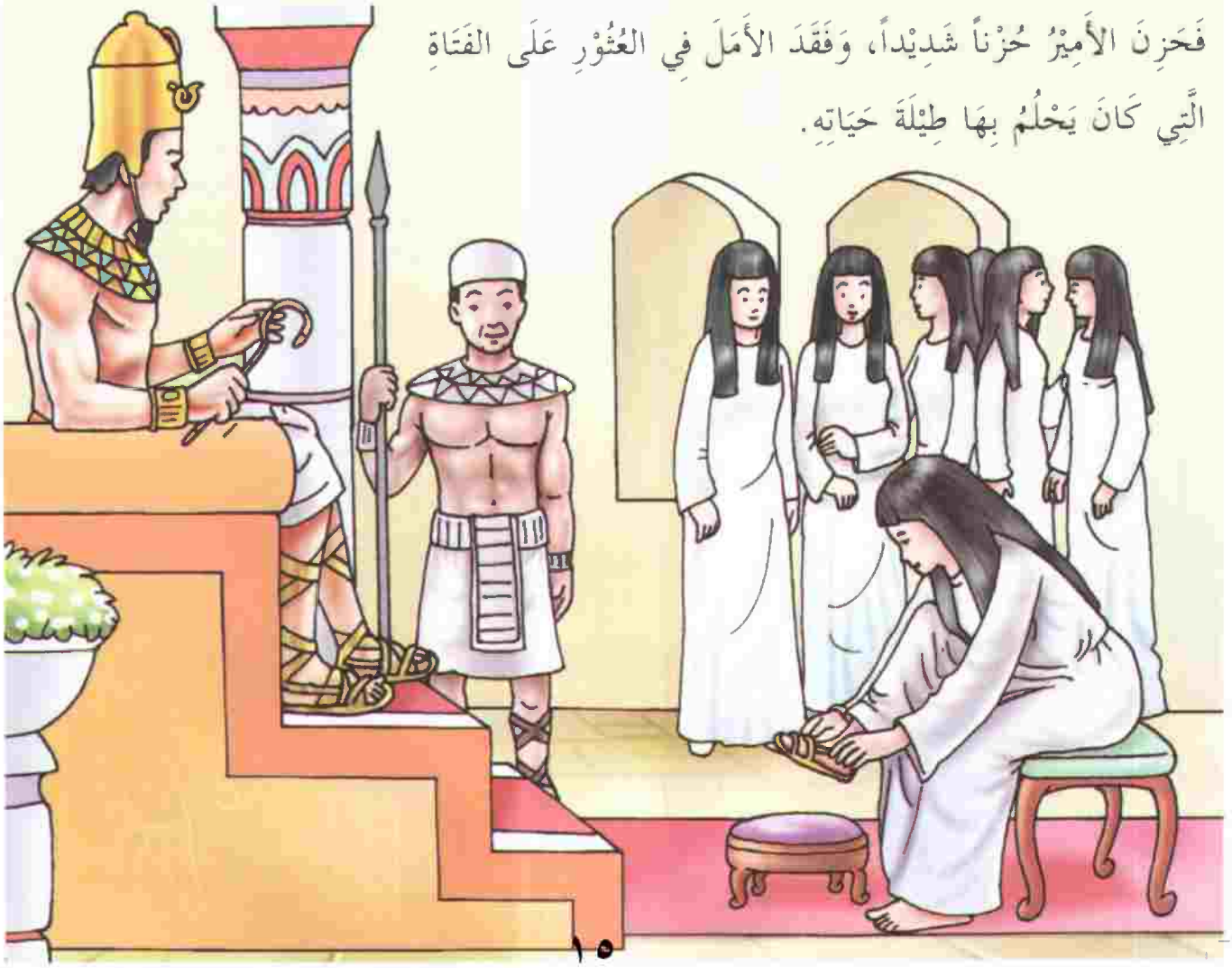

وَفي أَحَدِ الأَيَّامِ، بَيْنَمَا كَانَ الأَمِيْرُ جَالِساً عَلَى عَرْشِهِ يُفَكِّرُ فِي حَيَاتِهِ الخَالِيَةِ مِنَ الحُبِّ، دَخَلَ عَلَيْهِ الفَلَّاحُ الفَقِيْرُ الَّذِي كَانَ قَدْ أَطْلَقَ سَرَاحَهُ، وَقَالَ لَهُ: "إِذَا كُنْتَ تَرْغَبُ فِي رُؤْيَةِ أَجْمَلِ فَتَاةٍ، وَأَطْهَرِ امْرَأَةٍ فِي بِلَادِكَ، فَانْتَظِرْهَا عِنْدَ تِمْثَالِ أَبِي الهَوْلِ قُرْبَ الأَهْرَامَاتِ وَسْطَ الصَّحْرَاءِ".

فَقَرَّرَ الأَمِيْرُ الَّذِي كَانَ مُسْتَعِدّاً لِخَوْضِ أَيِّ تَجْرِبَةٍ، وَلِلذَّهَابِ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ يُمْكِنُ أَنْ يَجِدَ فِيْهِ الفَتَاةَ الَّتِي تُبَادِلُهُ الحُبَّ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ، قَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى تِمْثَالِ أَبِي الهَوْلِ فِي الحَالِ وَسْطَ الصَّحْرَاءِ.

وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى التِّمْثَالِ، سَمِعَ صَوْتَ غِنَاءٍ عَذْباً، وَأَخَذَ الصَّوْتُ يَقْتَرِبُ شَيْئاً فَشَيْئاً، لِتَظْهَرَ فِي النِّهَايَةِ (رودوبيس) الَّتِي كَانَتْ جَمِيْلَةً وَنَقِيَّةً كَنَسِيْمِ الصَّبَاحِ العَلِيْلِ، وَعِنْدَهَا بَدَأَ قَلْبُ الأَمِيْرِ الطَّيِّبِ يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ لِمَا هَالَهُ مِنْ جَمَالِهَا الآسِرِ، وَرِقَّتِهَا، وَعُذُوْبَةِ صَوْتِهَا، ثُمَّ حَمَلَ الخُفَّ، وَتَقَدَّمَ نَحْوَهَا وَخَاطَبَهَا بِدَمَاثَةٍ وَلُطْفٍ: "هَلْ يُمْكِنُكِ أَنْ تُجَرِّبِي هَذَا الخُفَّ أَيَّتُهَا الحَسْنَاءُ؟"

فَأَشَاحَتْ (رودوبيس) بِوَجْهِهَا عَنْهُ فِي البِدَايَةِ حَيَاءً، لَكِنَّهَا عَادَتْ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ، وَجَلَسَتْ عَلَى الصَّخْرَةِ،

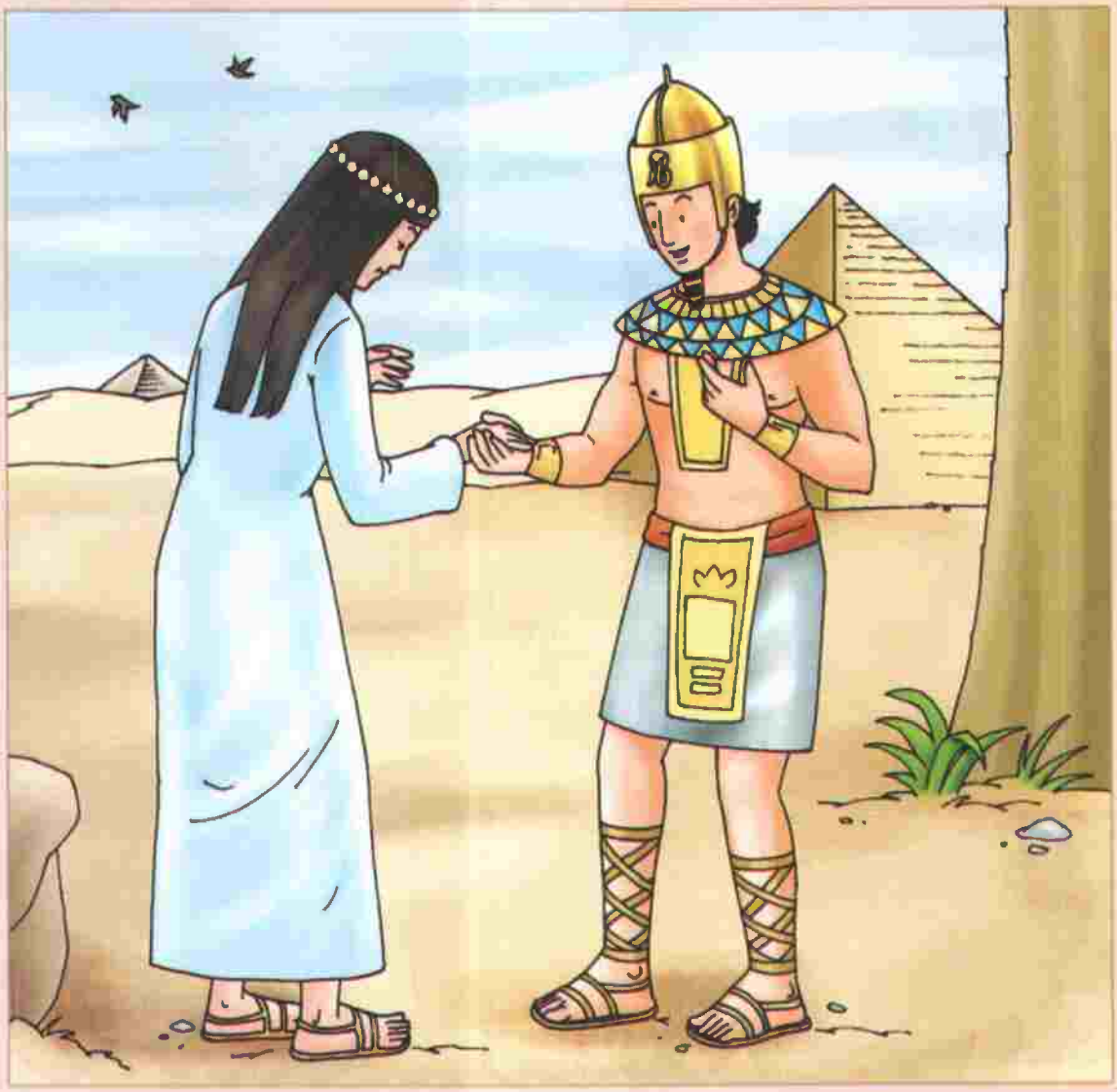

ثُمَّ مَدَّتْ قَدَمَهَا الَّتِي كَانَتْ حَافِيَةً، فَانْحَنَى الأَمِيْرُ قُبَالَتَهَا، وَأَلْبَسَهَا الخُفَّ الَّذِي نَاسَبَ قَدَمَهَا تَمَاماً.

فَقَالَ لَهَا الأَمِيْرُ: "أَرَى فِيْكِ جَمَالاً وَطِيْبَةً لَمْ أَرَهُمَا عِنْدَ فَتَاةٍ غَيْرَكِ، فَهَلْ تَقْبَلِيْنَ بِالزَّوَاجِ مِنِّي؟"

تَعَلَّقَ قَلْبُ (رودوبيس) فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِذَلِكَ الأَمِيْرِ الطَّيِّبِ، فَتَبَيَّنَتْ مَدَى تَوْقِهِ لِلْحُبِّ، وَعِشْقِهِ لِلْحَقِّ وَالعَدْلِ، فَأَمْسَكَتْ بِخُفِّهَا الآخَرِ الَّذِي تَرَكَتْهُ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، وَلَبِسَتْهُ فِي قَدَمِهَا الأُخْرَى.

ثُمَّ قَالَتْ لِلْأَمِيْرِ بِحَيَاءٍ: "لَنْ أَكُوْنَ إِلَّا لَكَ يَا مَوْلَايَ؛ لِأَنَّ الحُبَّ يَمْلَأُ قَلْبَكَ".

فَأُعْجِبَ الأَمِيْرُ بِمَا قَالَتْهُ، وَسُرَّ بِهَا كَثِيْراً؛ لِأَنَّهُ وَجَدَ أَخِيْراً الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَبْحَثُ عَنْهَا، وَوَجَدَ عِنْدَهَا الحُبَّ الَّذِي كَانَ يَسْعَى إِلَيْهِ.

زَوْجُ (بورشيا)

كَانَتْ (بورشيا) فَتَاةً ثَرِيَّةً مِنْ مَدِيْنَةِ (بيلمونت)، وَكَانَ وَالِدُهَا مُتَعَلِّقاً بِهَا، فَقَدْ كَانَ يُحِبُّهَا حُبّاً شَدِيْداً، وَكَانَ دَوْماً يُحَاوِلُ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي سَيَتَزَوَّجُهَا يُحِبُّهَا بِصِدْقٍ، لِذَا كَتَبَ لَهَا وَصِيَّةً قَبْلَ وَفَاتِهِ حَدَّدَ فِيْهَا الطَّرِيْقَةَ الَّتِي تَخْتَارُ فِيْهَا شَرِيْكَ حَيَاتِهَا، وَأَوْصَاهَا بِتَنْفِيْذِ مَا كُتِبَ فِيْهَا بِدِقَّةٍ.

عَمَدَ وَالِدُ (بورشيا) فِي خُطَّتِهِ إِلَى وَضْعِ صُنْدُوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَصُنْدُوْقٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَصُنْدُوْقٍ مِنْ رَصَاصٍ، وَتَرَكَ فِي أَحَدِ تِلْكَ الصَّنَادِيْقِ صُوْرَةً لِـ(بورشيا)، وَهَكَذَا يُمْكِنُ لِلشَّخْصِ الَّذِي يَخْتَارُ الصُّنْدُوْقَ الَّذِي يَحْتَوِي عَلَى صُوْرَتِهَا أَنْ يَفُوْزَ بِهَا زَوْجَةً لَهُ.

كَانَ الشَّابُّ (باسانيو) يَحْلُمُ بِالزَّوَاجِ مِنْ (بورشيا)، لَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ تَمَامَ العِلْمِ أَنَّهَا لَيْسَتْ حُرَّةً فِي اخْتِيَارِ مَنْ تُرِيْدُهُ زَوْجاً، إِذْ كَانَ الرِّجَالُ يَأْتُوْنَ إِلَيْهَا كُلَّ يَوْمٍ لِيُجَرِّبُوْا حَظَّهُمْ مَعَ الصَّنَادِيْقِ لَعَلَّهُمْ يَفُوْزُوْنَ بِهَا، حَتَّى إِنَّ أَمِيْرَ المَغْرِبِ قَدْ جَاءَ إِلَيْهَا لِيُجَرِّبَ حَظَّهُ هُوَ الآخَرُ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا قَالَهُ لَهَا هُوَ: "أَتَمَنَّى مِنْ سَيِّدَتِي أَلَّا تَنْفِرَ مِنِّي بِسَبَبِ سُمْرَةِ بَشَرَتِي".

فَأَجَابَتْهُ (بورشيا) بِقَوْلِهَا: "القَرَارُ لَيْسَ بِيَدِي يَا سَيِّدِي".

فَعَايَنَ الأَمِيْرُ الصَّنَادِيْقَ الثَّلَاثَةَ، فَأَتَى إِلَى الصُّنْدُوْقِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ مَصْنُوْعاً مِنَ الذَّهَبِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِ العِبَارَةَ الآتِيَةَ: (مَنْ يَخْتَرْنِي يَحْصَلْ عَلَى مَا يَرْغَبُ فِيْهِ الكَثِيْرُ مِنَ الرِّجَالِ)، أَمَّا الصُّنْدُوْقُ الثَّانِي المَصْنُوْعُ مِنَ الفِضَّةِ فَقَدْ كُتِبَ عَلَيْهِ: (مَنْ يَخْتَرْنِي يَحْصَلْ عَلَى مَا يَسْتَحِقُّهُ)، وَعَلَى الصُّنْدُوْقِ الرَّصَاصِيِّ ذِي المَنْظَرِ الكَئِيْبِ كُتِبَتِ العِبَارَةُ: (مَنْ يَخْتَرْنِي يَمْنَحْ كُلَّ مَا لَدَيْهِ، وَيُخَاطِرْ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ).

وَبَعْدَ مُعَايَنَةِ الأَمِيْرِ الصَّنَادِيْقَ، خَاطَبَتْ (بورشيا) الأَمِيْرَ قَائِلَةً: "يَحْتَوِي أَحَدُ تِلْكَ الصَّنَادِيْقِ عَلَى صُوْرَةٍ لِي، فَإِذَا اخْتَرْتَ ذَلِكَ الصُّنْدُوْقَ، عِنْدَهَا سَأُصْبِحُ لَكَ عَلَى الفَوْرِ".

فَهَتَفَ الأَمِيْرُ بَعْدَ أَنِ اتَّخَذَ قَرَارَهُ: "إِذاً أَعْطِنِي مِفْتَاحَ الصُّنْدُوْقِ الذَّهَبِيِّ"، وَلَكِنْ عِنْدَمَا فَتَحَ هَذَا الصُّنْدُوْقَ وَجَدَ فِيْهِ الأَمِيْرُ جُمْجُمَةً وُضِعَ فِي أَحَدِ مَحْجِرَيْهَا الفَارِغَيْنِ وَرَقَةٌ، فَلَمَّا فَتَحَهَا قَرَأَ فِيْهَا العِبَارَةَ الآتِيَةَ: (لَيْسَ كُلُّ مَا يَلْمَعُ ذَهَباً).

وَهَكَذَا غَادَرَ أَمِيْرُ المَغْرِبِ البِلَادَ وَهُوَ حَزِيْنٌ لِفَشَلِهِ فِي اخْتِيَارِ الصُّنْدُوْقِ الصَّحِيْحِ.

ثُمَّ دَخَلَتْ وَصِيْفَةُ (بورشيا) عَلَيْهَا مُسْرِعَةً لِتُعْلِمَهَا بِنَبَأِ وُصُوْلِ شَابٍّ مِنَ البُنْدُقِيَّةِ يُدْعَى (باسانيو) يُرِيْدُ أَنْ يَخْتَارَ أَحَدَ الصَّنَادِيْقِ، فَسُرَّتْ (بورشيا) بِقُدُوْمِهِ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مُغْرَمَةً بِهِ مُنْذُ أَنْ أَتَى لِلِقَاءِ وَالِدِهَا، وَكَانَتْ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهَا تَأْمُلُ أَنْ يَخْتَارَ (باسانيو) الصُّنْدُوْقَ الصَّحِيْحَ.

لِذَلِكَ أَرْشَدَتْ (بورشيا) (باسانيو) إِلَى المَكَانِ الَّذِي وُضِعَ فِيْهِ الصَّنَادِيْقُ الثَّلَاثَةُ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَأَخَذَ يُفَكِّرُ مَلِيّاً، فَامْتَنَعَ عَنْ فَتْحِ الصُّنْدُوْقِ الذَّهَبِيِّ؛ لِأَنَّ الذَّهَبَ مَظْهَرٌ خَارِجِيٌّ لَيْسَ غَيْرُ، وَقَدْ يَنْخَدِعُ بِهِ أَكْثَرُ الرِّجَالِ حِكْمَةً وَدَهَاءً.

وَقَرَّرَ أَلَّا يَلْمَسَ الصُّنْدُوْقَ الفِضِّيَّ أَيْضاً؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الفِضَّةَ مَا هِيَ إِلَّا مَعْدِنٌ مُبْتَذَلٌ يَتَدَاوَلُهُ الرِّجَالُ فِيْمَا بَيْنَهُمْ كَمَا يَتَبَادَلُوْنَ القِطَعَ النَّقْدِيَّةَ، وَهَذَا مَا جَعَلَ (باسانيو) يَخْتَارُ الرَّصَاصَ فِي نِهَايَةِ المَطَافِ؛ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ مِنَ الضَّرُوْرِيِّ لِلْمَرْءِ أَلَّا يَنْخَدِعَ بِالمَظْهَرِ الخَارِجِيِّ لِلْأُمُوْرِ وَالأَشْيَاءِ.

وَعِنْدَ اِخْتِيَارِهِ ذَلِكَ الصُّنْدُوْقَ تَنَفَّسَتْ (بورشيا) الصُّعَدَاءَ، بَعْدَ أَنْ حَبَسَتْ أَنْفَاسَهَا طِيْلَةَ تِلْكَ الفَتْرَةِ، وَعِنْدَمَا فَتَحَ (باسانيو) الصُّنْدُوْقَ الرَّصَاصِيَّ وَجَدَ فِيْهِ وَرَقَةً كُتِبَ فِيْهَا: (أَنْتَ يَا مَنْ لَمْ يَخْدَعْكَ المَظْهَرُ عِنْدَ الاِخْتِيَارِ، فَحَالَفَكَ الحَظُّ، وَاِخْتَرْتَ الصُّنْدُوْقَ الصَّحِيْحَ، لِذَا اِسْتَدِرْ لِتَرَى زَوْجَتَكَ المُسْتَقْبَلِيَّةَ، وَاُطْلُبْ مِنْهَا أَنْ تُوَافِقَ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْكَ فَوْراً).

فَأَقْبَلَ (باسانيو) نَحْوَ (بورشيا)، وَقَالَ لَهَا: "لَقَدْ كَانَ اِخْتِيَارِي صَائِباً يَا (بورشيا)".

فَأَجَابَتْهُ (بورشيا) وَالفَرَحُ بَادٍ عَلَى مُحَيَّاهَا: "وَلِذَلِكَ أَصْبَحْتُ مُلْكَ يَدَيْكَ يَا سَيِّدُ (باسانيو)، وَأَنَا أَقْبَلُ أَنْ تَأْخُذَنِي مَعَكَ حَيْثُمَا شِئْتَ، وَقَدْ غَدَا كُلُّ مَا أَمْلِكُهُ مِنْ قُصُوْرٍ وَخَدَمٍ وَأَمْوَالٍ تَحْتَ أَمْرِكَ، وَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ مَعَ هَذَا الخَاتَمِ أَيْضاً".

رَدَّ (باسانيو) بِسُرُوْرٍ، وَالحُبُّ يَمْلَأُ فُؤَادَهُ تُجَاهَ الفَتَاةِ الَّتِي سَتُصْبِحُ زَوْجَهُ: "إِذاً لَنْ يُفَارِقَ هَذَا الخَاتَمُ إِصْبَعِي مُطْلَقاً".

لَقَدْ كَانَ الصُّنْدُوْقُ الرَّصَاصِيُّ رَمْزاً لِلْحُبِّ الحَقِيْقِيِّ الَّذِي يَدُوْمُ مَهْمَا تَقَلَّبَتِ الأَحْوَالُ، وَيَبْقَى فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، إِنَّهُ ذَلِكَ الحُبُّ الَّذِي يَسْتَمِرُّ إِلَى أَنْ يُفَرِّقَ المَوْتُ بَيْنَ الأَحِبَّةِ.

عِيدُ (مَرْوَة)

كَانَتْ (مَرْوَةُ) تَجْلِسُ وَحِيْدَةً فِي المَطْبَخِ؛ لِأَنَّ الفَلَّاحَ الَّذِي تَعِيْشُ فِي بَيْتِهِ غَادَرَ مَعَ أُسْرَتِهِ لِلْاحْتِفَالِ بِلَيْلَةِ العِيْدِ، وَتَرَكُوْهَا وَحِيْدَةً لِتَهْتَمَّ بِشُؤُوْنِ البَيْتِ، وَلَمْ يُفَكِّرْ أَيٌّ مِنْهُمْ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا هَدِيَّةً، أَوْ أَنْ يَتَذَكَّرَ بِأَنَّ العِيْدَ مُنَاسَبَةٌ طَيِّبَةٌ لِإِسْعَادِ الأَطْفَالِ، سَوَاءٌ أَكَانُوْا مِنَ الأَثْرِيَاءِ، أَمْ مِنَ الفُقَرَاءِ، إِذْ لَمْ تَتَجَاوَزْ (مَرْوَةُ) الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ العُمْرِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهَا أُسْرَةٌ تَعِيْشُ بَيْنَ أَفْرَادِهَا، لِذَا فَقَدْ جَلَسَتْ وَحِيْدَةً فِي تِلْكَ الأُمْسِيَةِ قُرْبَ النَّارِ وَقَلْبُهَا يَتَفَطَّرُ حُزْناً وَأَلَماً؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ مَنْ يُحِبُّهَا فِي هَذَا العَالَمِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَحْدِيْداً كَانَتْ (مَرْوَةُ) تَعْتَقِدُ بِوُجُوْدِ جِنِّيَّاتٍ فِي عَالَمِنَا، وَتَخَيَّلَتْ أَنَّهُنَّ يُقَدِّمْنَ لَهَا الكَثِيْرَ مِنَ الأَشْيَاءِ الرَّائِعَةِ الَّتِي تُحِبُّهَا، فَقَدْ سَمِعَتْ عَنْ ذَلِكَ فِي قَصَصِ الجِنِّيَّاتِ، وَكَانَتْ (مَرْوَةُ) تَتَحَدَّثُ مَعَ نَفْسِهَا، وَتَقُوْلُ: "أَنَا مُتَأَكِّدَةٌ بِأَنِّي وَحِيْدَةٌ كَـ(سندريلا)، وَأَحْتَاجُ إِلَى أُمٍّ رُوْحِيَّةٍ لِتُخْرِجَنِي مِمَّا أَنَا فِيْهِ"، وَبَعْدَ أَنْ أَطَالَتِ التَّفْكِيْرَ فِي عَالَمِ الجِنِّ، وَسَرَحَ بِهَا خَيَالُهَا فِيْهِ، جَلَسَتْ (مَرْوَةُ) عَلَى كُرْسِيِّهَا الصَّغِيْرِ، وَأَخَذَتْ تُحَدِّقُ فِي النَّارِ المُشْتَعِلَةِ فِي المَوْقِدِ.

يَظُنُّ كَثِيْرُوْنَ أَنَّهُ يُمْكِنُ لِلْأَشْيَاءِ العَجْمَاءِ كُلِّهَا أَنْ تَتَكَلَّمَ مُدَّةَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ لَيْلَةَ العِيْدِ، إِلَّا أَنَّ (مَرْوَةَ) لَمْ تَكُنْ

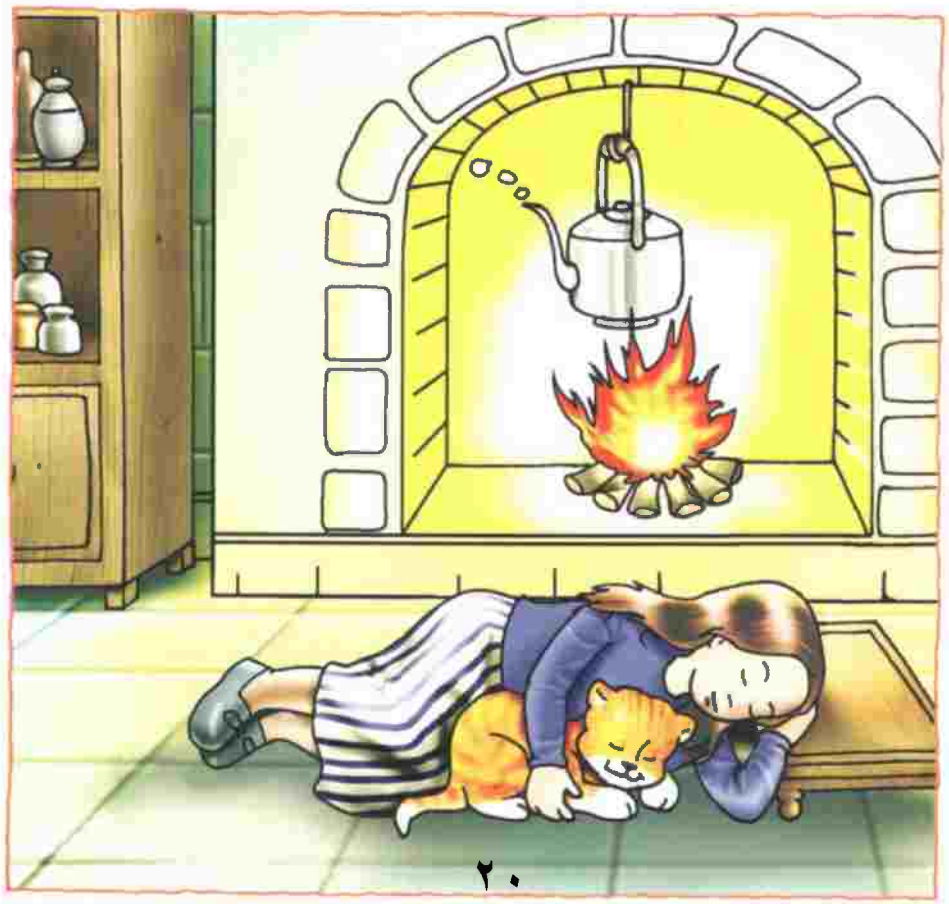

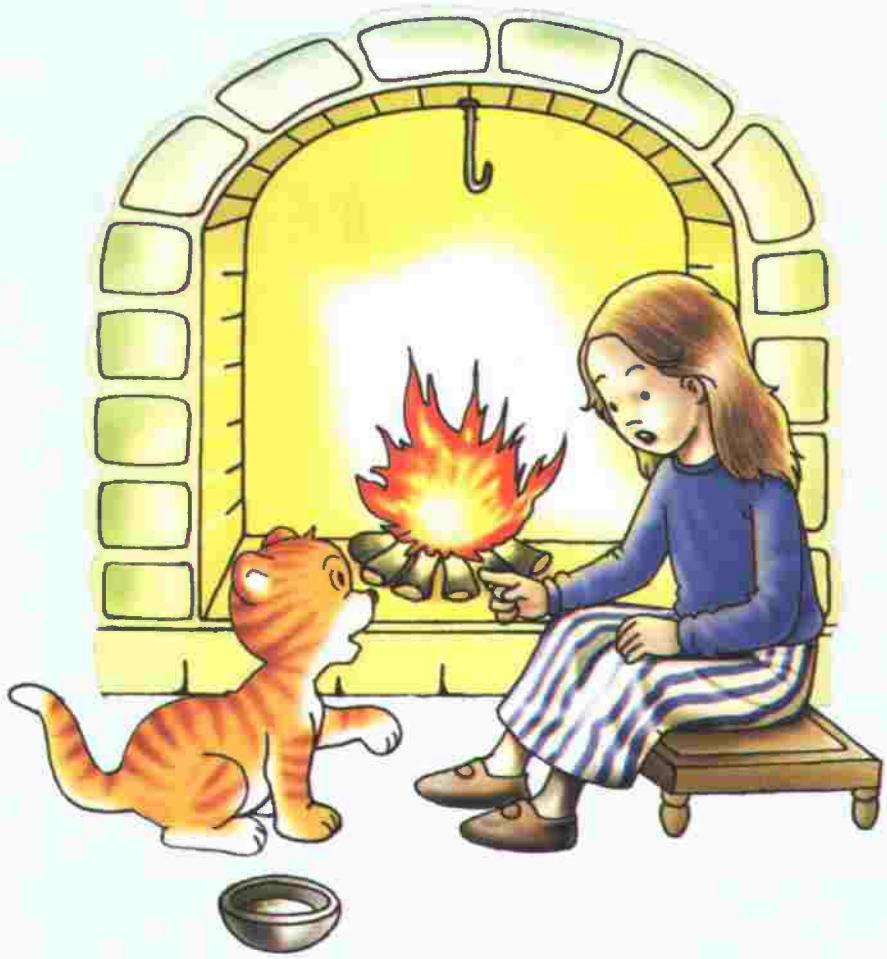

قَدْ سَمِعَتْ بِهَذَا مِنْ قَبْلُ، أَوْ لَعَلَّهَا اِسْتَسْلَمَتْ لِلنَّوْمِ، فَرَأَتْ ذَلِكَ فِي مَنَامِهَا، لَكِنَّهَا دُهِشَتْ حِيْنَمَا سَمِعَتْ صَوْتاً خَفِيْضاً يَهْتِفُ فَجْأَةً، فَجَعَلَتْ تَنْظُرُ حَوْلَهَا بَاحِثَةً عَنْ مَصْدَرِهِ، فَلَمْ تَرَ إِلَّا القِطَّةَ الرَّمَادِيَّةَ العَجُوْزَ، فَسَأَلَتْهَا (مَرْوَةُ): "هَلْ تَكَلَّمْتِ يَا قِطَّتِي؟"

فَرَدَّتِ القِطَّةُ: "نَعَمْ، أَنَا مَنْ تَكَلَّمَ، وَإِذَا كُنْتِ تَرْغَبِيْنَ فِي أَنْ تَعْتَنِي بِكِ أُمٌّ رُوْحِيَّةٌ فَأَنَا مُسْتَعِدَّةٌ لِذَلِكَ".

عِنْدَهَا ضَحِكَتْ (مَرْوَةُ) مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهَا، ثُمَّ قَالَتْ لِقِطَّتِهَا بِاِحْتِرَامٍ وَلُطْفٍ: "حَسَناً يَا سَيِّدَتِي، حَدِّثِيْنِي فَكُلِّي أُذُنٌ صَاغِيَةٌ".

فَسَأَلَتْهَا الأُمُّ الرُّوْحِيَّةُ: "عَلَيْكِ يَا بُنَيَّتِي أَنْ تُخْبِرِيْنِي أَوَّلاً عَنْ أَكْثَرِ شَيْءٍ تُحِبِّيْنَهُ وَتَحْتَاجِيْنَهُ".

أَجَابَتْ (مَرْوَةُ): "أُرِيْدُ أَنْ يُحِبَّنِي كُلُّ مَنْ حَوْلِي".

"حَسَناً" قَالَتِ القِطَّةُ، "لَكِنِّي سَأُعَلِّمُكِ كَيْفَ بِوُسْعِكِ أَنْ تُحَقِّقِي تِلْكَ الأُمْنِيَّةَ، إِذْ عَلَيْكِ أَنْ تَتَعَلَّمِي كَيْفَ تَدْفَعِيْنَ الآخَرِيْنَ إِلَى حُبِّكِ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا تُحِبِّيْنَهُمْ أَنْتِ أَوَّلاً".

أَخَذَتْ (مَرْوَةُ) تُنْصِتُ بِاِهْتِمَامٍ لِكُلِّ مَا تَقُوْلُهُ القِطَّةُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مُسْتَعِدَّةً لِفِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ يَمْنَحُهَا قَدْراً يَسِيْراً مِنَ المَحَبَّةِ. وَفِي الوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ فِيْهِ (مَرْوَةُ) تَتَحَدَّثُ مَعَ القِطَّةِ، كَانَ الفَلَّاحُ وَعَائِلَتُهُ فِي طَرِيْقِ

العَوْدَةِ إِلَى المَنْزِلِ بَعْدَ حَفْلَةِ لَيْلَةِ العِيْدِ.

وَعِنْدَمَا كَانَتِ الزَّلَّاجَةُ الَّتِي حَمَلَتِ الأُسْرَةَ تَلْتَهِمُ الطَّرِيْقَ مُسْرِعَةً نَحْوَ البَيْتِ، قَالَتِ العَمَّةُ (سُمَيَّةُ): "إِنَّنِي مُتَأَكِّدَةٌ مِنْ أَنَّ تِلْكَ الفَتَاةَ الشَّقِيَّةَ تَعْبَثُ فِي البَيْتِ، وَتُخَرِّبُ مُحْتَوَيَاتِهِ".

إِلَّا أَنَّ الفَلَّاحَ رَدَّ عَلَيْهَا بِأَدَبٍ قَائِلاً: "لَا يَا عَمَّتِي، لَا أَتَوَقَّعُ أَنْ تَفْعَلَ تِلْكَ الفَتَاةُ المِسْكِيْنَةُ شَيْئاً مِثْلَ هَذَا، وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ إِلَيَّ وَحْدِي لَاصْطَحَبْتُهَا مَعَنَا لِنَقْضِيَ مَعاً وَقْتاً طَيِّباً، إِذْ يَبْدُوْ أَنَّهَا مَحْرُوْمَةٌ مِنْ مُتَعِ الحَيَاةِ".

وَعِنْدَهَا تَدَخَّلَتْ زَوْجُ الفَلَّاحِ، وَقَالَتْ: "لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ مُتَّسَعٌ مِنَ الوَقْتِ لِأَشْتَرِيَ لَهَا ثَوْباً مُنَاسِباً لِتِلْكَ الحَفْلَةِ"، ثُمَّ أَخَذَتْ تَحْتَضِنُ ابْنَتَهَا الصَّغِيْرَةَ (جَنَى) تَحْتَ الأَغْطِيَةِ.

ثُمَّ صَاحَ (بَاسِلٌ) وَهُوَ يَجْلِسُ فِي حِضْنِ أُمِّهِ وَيَحْمِلُ بِيَدِهِ عُلْبَةَ "بُوْشَارٍ": "لَقَدْ أَحْضَرْتُ لَهَا بَعْضَ "البُوْشَارِ" وَتُفَّاحَةً كَبِيْرَةً شَهِيَّةً"، فَأَرْدَفَتْ أُخْتُهُ الصَّغِيْرَةُ (جَنَى): "وَأَنَا سَأُقَدِّمُ لَهَا إِحْدَى الدُّمَى الَّتِي لَدَيَّ".

وَعِنْدَهَا قَالَتِ العَمَّةُ (سُمَيَّةُ): "إِذَا لَمْ تَكُنْ قَدْ تَسَبَّبْتَ بِأَيِّ أَذىً أَوْ تَخْرِيْبٍ فِي البَيْتِ، وَإِنْ لَمْ تَنْسَ أَنْ تَضَعَ إِبْرِيْقَ المَاءِ عَلَى النَّارِ لِأَصْنَعَ قَدَحاً مِنَ الشَّايِ لِنَفْسِي، عِنْدَهَا يُمْكِنُ أَنْ أُعْطِيَهَا القُفَّازَاتِ الحَمْرَاءَ".

وَحِيْنَمَا وَصَلُوْا جَمِيْعاً إِلَى المَنْزِلِ وَجَدُوْا (مَرْوَةَ) المِسْكِيْنَةَ مُمَدَّدَةً عَلَى البِلَاطِ، بَيْنَمَا وَضَعَتْ رَأْسَهَا عَلَى

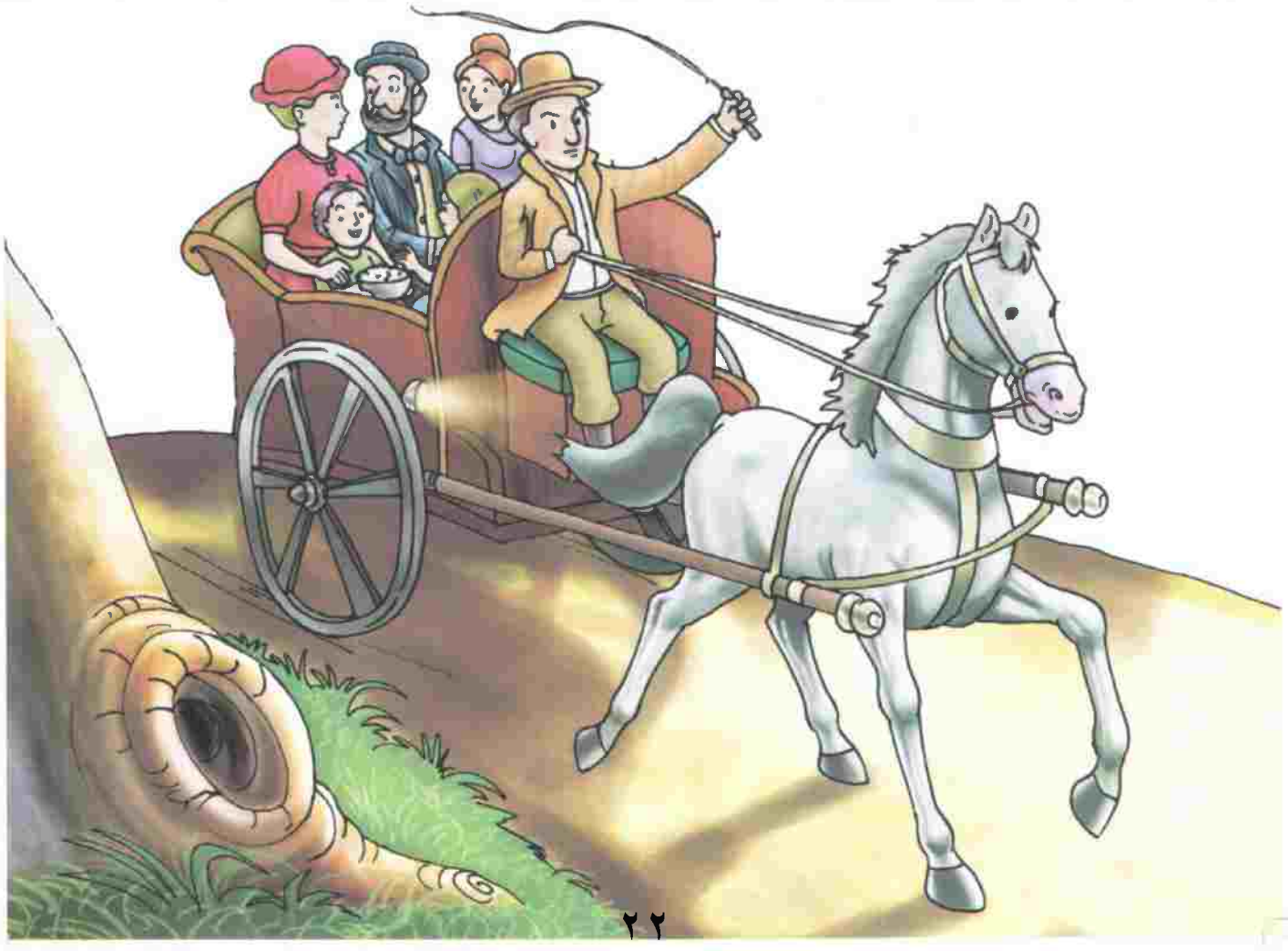

الكُرْسِيّ، وَنامَتِ القِطَّةُ بَيْنَ ذِراعَيْهَا.

كَانَتِ النَّارُ تَتَّقِدُ مُصْدِرَةً لَهِيباً وَتَوَهُّجاً، بَيْنَمَا كَانَ قِدْرُ المَاءِ يَغْلِي، وَعَلَى رَفِّ المَوْقِدِ شَاهَدَ أَفْرَادُ العَائِلَةِ لَيْسَ خُفَّ العَمَّةِ (سُمَيَّةَ) القَدِيمَ فَقَطْ، بَلْ وَخُفَّ السَّيِّدِ وَالسَّيِّدَةِ أَيْضاً، وَعَلَى أَحَدِ الكَرَاسِي عَلَّقَتْ ثِيَابَ نَوْمٍ بِحَجْمٍ صَغِيرٍ، وَذَلِكَ حَتَّى يَرْتَدِيَهَا الطِّفْلَانِ دَافِئَةً قَبْلَ نَوْمِهِمَا.

وَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ كُلَّهُ هَتَفَتِ العَمَّةُ (سُمَيَّةُ) قَائِلَةً: "يَا لَهَا مِنْ فَتَاةٍ رَصِينَةٍ حَقّاً! سَأُعْطِيهَا القُفَّازَاتِ مَعَ زَوْجَيْنِ مِنَ الجَوَارِبِ الطَّوِيلَةِ أَيْضاً".

ثُمَّ وَضَعَتِ العَمَّةُ (سُمَيَّةُ) القُفَّازَيْنِ بِأَلْوَانِهِمَا الزَّاهِيَةِ قُرْبَ يَدَيِ الفَتَاةِ المِسْكِينَةِ الَّتِي كَانَتْ يَدَاهَا صَغِيرَتَيْنِ وَخَشِنَتَيْنِ بِسَبَبِ العَمَلِ المُضْنِي الَّذِي أَدَّتْهُ طِيلَةَ النَّهَارِ، أَمَّا (بَاسِلٌ) فَقَدْ وَضَعَ التُّفَّاحَةَ الحَمْرَاءَ الكَبِيرَةَ مَعَ عُلْبَةِ "البُوشَارِ" فِي مَكَانٍ كَانَ لَابُدَّ لِـ(مَرْوَةَ) أَنْ تُلَاحِظَهُ عِنْدَمَا تَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهَا، وَبَقِيَتْ (جَنَى) تَحْمِلُ اللُّعْبَةَ بِيَدَيْهَا، لَكِنَّ الفَلَّاحَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَحْضَرَ هَدِيَّةً لِـ(مَرْوَةَ)، إِلَّا أَنَّهُ أَخَذَ يَمْسَحُ شَعْرَهَا بِلَمْسَاتٍ أَبَوِيَّةٍ جَعَلَتْهَا تَبْتَسِمُ فِي نَوْمِهَا، أَمَّا أُمُّ الطِّفْلَيْنِ فَقَدْ كَانَتْ صَاحِبَةَ أَفْضَلِ هَدِيَّةٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا انْحَنَتْ فَوْقَ (مَرْوَةَ) وَقَبَّلَتْهَا قُبْلَةً فِيهَا كُلُّ حَنَانِ الأُمُومَةِ وَعَطْفِهَا.

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَيْقَظَتْ (مَرْوَةُ) فَجْأَةً، وَأَخَذَتْ تَنْظُرُ بِدَهْشَةٍ وَتَعَجُّبٍ، وَظَنَّتْ أَنَّهَا تَحْلُمُ، فَرَأَتْ ذَلِكَ التَّغَيُّرَ الكَبِيرَ الَّذِي ظَهَرَتْ آثَارُهُ عَلَى وُجُوهِ مَنْ كَانُوا حَوْلَهَا، فَأَخَذَتْ تُصَفِّقُ، وَتَضْحَكُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ، وَلَاسِيَّمَا عِنْدَمَا قَدَّمَ لَهَا كُلٌّ مِنْ (جَنَى) وَ(بَاسِلٍ) هَدَايَاهُمَا، فَصَاحَتْ وَالفَرْحَةُ تَغْمُرُ قَلْبَهَا: "لَقَدْ تَحَقَّقَ حُلُمِي، أَجَلْ لَقَدْ تَحَقَّقَ!".

مَحبَّةُ (تيريزا) الحقيقيَّةُ

جَلَسَتْ فَتَاةٌ صَغِيْرَةٌ في كَنِيْسَةٍ (يوغوسلافيَّةٍ) لِتَسْتَمِعَ إِلَى عِظَةِ القَسِّيْسِ الَّذي خَطَبَ بِالنَّاسِ، فَقَالَ: "حِيْنَمَا تُسَاعِدُوْنَ الفُقَرَاءَ مِنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّكُمْ بِذَلِكَ تَتَقَرَّبُوْنَ مِنَ اللهِ بِتِلْكَ الطَّاعَاتِ".

وَقَدْ لَامَسَتْ تِلْكَ الكَلِمَاتُ شَغَافَ قَلْبِ تِلْكَ الفَتَاةِ الَّتِي كَانَتْ تُدْعَى (آغنيس)، وَكَانَتْ كَرِيْمَةً وَحَنُوْناً بِطَبِيْعَتِهَا، وَكَانَتْ قَدْ سَمِعَتِ الكَثِيْرَ عَنْ وِلَايَةِ (البنغال) في الهِنْدِ، لِذَا كَانَتْ تَرْغَبُ في مُسَاعَدَةِ النَّاسِ هُنَاكَ.

وَحِيْنَمَا بَلَغَتْ (آغنيس) الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا قَرَّرَتْ أَنْ تُصْبِحَ رَاهِبَةً، وَالرَّاهِبَةُ هِيَ امْرَأَةٌ تَقْضِي حَيَاتَهَا في خِدْمَةِ دِيْنِ اللهِ، وَهَكَذَا انْتَسَبَتْ (آغنيس) إِلَى دَيْرِ (لوريتو) وَغَيَّرَتِ اسْمَهَا إِلَى (تيريزا).

وَفي عَامِ ١٩٢٨ عُيِّنَتْ (تيريزا) مُعَلِّمَةً في مَدْرَسَةِ: (القِدِّيْسَةِ مَرْيَمَ) في (كلكتا)، حَيْثُ عَمِلَتْ هُنَاكَ بِضْعَ سَنَوَاتٍ، قَبْلَ أَنْ تُصْبِحَ مُدِيْرَةً لِتِلْكَ المَدْرَسَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تُحِبُّ عَمَلَهَا، وَتَعِيْشُ حَيَاةً هَانِئَةً هُنَاكَ.

وَلَكِنْ قُدِّرَ لَهَا أَنْ تَزُوْرَ في أَحَدِ الأَيَّامِ حَيّاً فَقِيْراً مِنْ أَحْيَاءِ (كلكتا)، فَلَمْ تُصَدِّقْ مَا رَأَتْهُ عَيْنَاهَا مِنْ بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ، فَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الأَحْيَاءُ مُهَمَّشَةً، وَيَنْتَشِرُ فِيْهَا الجُوْعُ وَالقَذَارَةُ وَالأَمْرَاضُ، حَيْثُ يَعِيْشُ النَّاسُ وَيَمُوْتُوْنَ وَسْطَ تِلْكَ الأَحْوَالِ المُزْرِيَةِ، وَهَذَا مَا ذَكَّرَهَا بِمَا سَمِعَتْهُ مِنَ القَسِّيْسِ في يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، فَشَعَرَتْ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُقَدِّمَ شَيْئاً مَا لِلْفُقَرَاءِ، بَلْ كَانَ عَلَيْهَا أَنْ تَكُوْنَ في خِدْمَتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ جَمِيْعاً عِبَادُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

اتَّخَذَتِ الأُمُّ (تيريزا) قَرَارَهَا بِالعَيْشِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ الفُقَرَاءِ، فَتَخَلَّصَتْ مِنْ رِدَاءِ الرَّاهِبَاتِ لِكَي لَا تَبْدُوَ مُخْتَلِفَةً عَنْهُمْ، وَارْتَدَتِ اللِّبَاسَ الشَّعْبِيَّ وَهُوَ السَّارِي الهِنْدِيُّ المُتَوَاضِعُ، بِلَوْنِهِ الأَبْيَضِ المُخَطَّطِ بِاللَّوْنِ الأَزْرَقِ عِنْدَ أَطْرَافِهِ.

لَقَدْ كَانَتِ الأُمُّ (تيريزا) تَتَقَرَّبُ مِنْ رَبِّهَا كُلَّمَا جَلَسَتْ مَعَ الفُقَرَاءِ، أَوْ تَحَدَّثَتْ إِلَيْهِمْ، وَلِهَذَا كَانَ لِزَاماً عَلَيْهَا أَنْ تُشْعِرَهُمْ بِمَدَى مَحَبَّتِهَا لَهُمْ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ حِيْنَمَا أَخَذَتْ تَجْمَعُ الأَطْفَالَ الَّذِيْنَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ مَنْ يَعْتَنِي بِهِمْ، فَكَانَتْ تَغْسِلُهُمْ وَتُنَظِّفُهُمْ بِكُلِّ مَحَبَّةٍ، وَقَدْ وَصَلَتْ أَخْبَارُ هَذِهِ المَرْأَةِ غَيْرِ العَادِيَّةِ إِلَى بَعْضِ الأَغْنِيَاءِ، فَأُعْجِبُوْا بِمَا فَعَلَتْهُ، وَرَغِبُوْا بِمَدِّ يَدِ العَوْنِ إِلَى هَؤُلَاءِ الفُقَرَاءِ أَيْضاً، فَأَخَذُوْا يَجْلِبُوْنَ الغِذَاءَ وَالمَلْبَسَ لِلْأُمِّ (تيريزا)، فَوَزَّعَتْهَا عَلَى الفُقَرَاءِ لِإِسْعَادِهِمْ.

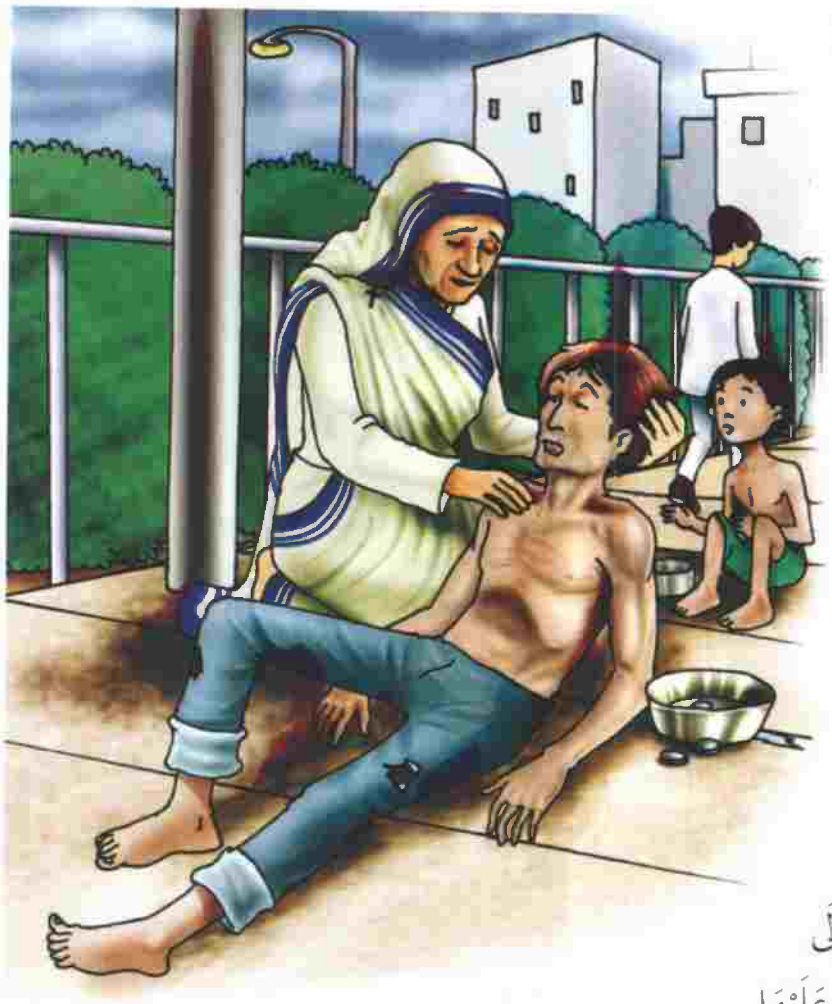

وَفي أَحَدِ الأَيَّام، بَيْنَمَا كَانَتِ الأُمُّ (تيريزا) تَسِيْرُ في أَحَدِ شَوَارِعِ (كلكتا)، وَجَدَتْ رَجُلاً مُمَدَّداً عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيْقِ، بَعْدَمَا تَرَكَتْهُ عَائِلَتُهُ لِيُلَاقِيَ مَصِيْرَهُ المَحْتُوْمَ، أَلَا وَهُوَ المَوْتُ، فَسَارَعَتِ الأُمُّ (تيريزا) لِنَقْلِهِ إِلَى المَشْفَى، غَيْرَ أَنَّ إِدَارَةَ المَشْفَى رَفَضَتِ اسْتِقْبَالَهُ، لَكِنَّ هَذَا لَمْ يُوْهِنْ مِنْ عَزِيْمَةِ الأُمِّ (تيريزا)، أَوْ يُفْقِدْهَا الأَمَلَ بِنَجَاتِهِ، بَلْ زَادَ مِنْ إِصْرَارِهَا وَإِلْحَاحِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ تَمَكَّنَتْ مِنْ إِقْنَاعِهِمْ في نِهَايَةِ الأَمْرِ.

وَفي اليَوْمِ الَّذِي أَعْقَبَ تِلْكَ الحَادِثَةَ سَارَعَتِ الأُمُّ (تيريزا) لِلذَّهَابِ إِلَى بَلَدِيَّةِ (كلكتا)، وَطَلَبَتْ مِنَ القَائِمِيْنَ عَلَيْهَا تَخْصِيْصَ مَقَرٍّ لَهَا لِتَتَمَكَّنَ مِنْ خِلَالِهِ مِنَ العِنَايَةِ بِالمَرْضَى، وَأُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ شَارَفُوْا عَلَى المَوْتِ، وَوَصَلُوْا إِلَى النَّزْعِ الأَخِيْرِ، فَقَدْ كَانَتْ تَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ حِيْنَمَا كَانَتْ تَعْمَلُ عَلَى تَلْبِيَةِ رَغَبَاتِهِمُ الأَخِيْرَةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مُعْظَمَهُمْ يَكُوْنُ بِحَاجَةٍ لِلْحُبِّ وَالحَنَانِ في تِلْكَ اللَّحَظَاتِ العَصِيْبَةِ، وَلَمْ يَكُنْ يُهِمُّهَا الدِّيْنُ الَّذِي يَعْتَنِقُهُ هَؤُلَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ يُهِمُّهَا إِلَّا أَنْ تَكُوْنَ بِجَانِبِهِمْ سَاعَةَ الاحْتِضَارِ، فَقَدْ كَانَ يَأْتِيْهَا في بَعْضِ الأَحْيَانِ أَشْخَاصٌ يَعْتَنِقُوْنَ الدِّيَانَةَ الهِنْدُوْسِيَّةَ، فَكَانُوْا يَطْلُبُوْنَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ مِنْ نَهْرِ (الغانج) المُقَدَّسِ، وَأَحْيَاناً كَانَتْ تُصَادِفُ مُسْلِمِيْنَ يَطْلُبُوْنَ مِنْهَا أَنْ تَتْلُوَ لَهُمْ آيَاتٍ مِنَ القُرْآنِ، أَمَّا المَسِيْحِيُّوْنَ فَكَانُوْا يَطْلُبُوْنَ أَنْ يُؤْتَى لَهُمْ بِالإِنْجِيْلِ، وَقَدْ يَطْلُبُ مِنْهَا أَحَدُهُمْ لُفَافَةَ تَبْغٍ أَوْ طَبَقَ طَعَامٍ يُفَضِّلُهُ، لَكِنَّهَا رَغْمَ ذَلِكَ كَانَتْ تُلَبِّي لَهُمْ طَلَبَاتِهِمْ جَمِيْعَهَا دُوْنَ تَمْيِيْزٍ بَيْنَ أَيِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

لَقَدْ كَانَ قَلْبُ الأُمِّ (تيريزا) مُفْعَماً بِالحُبِّ تُجَاهَ كُلِّ مُحْتَاجٍ وَمُعْوِزٍ، وَمَعَ مُرُوْرِ الأَيَّامِ أَصْبَحَ لَهَا أَتْبَاعٌ وَمُرِيْدِيْنَ، جُلُّهُمْ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي كُنَّ يُرِدْنَ أَنْ يَحْذِيْنَ حَذْوَهَا في خِدْمَةِ عِبَادِ اللهِ وَإِمَائِهِ، لِذَا فَقَدْ أَطْلَقَتْ مَجْمُوْعَةُ مُرِيْدِيْهَا مِنَ النِّسَاءِ عَلَى نَفْسِهَا اسْمَ: (جَمْعِيَّةُ أَخَوَاتِ التَّبْشِيْرِ الخَيْرِيَّةُ)، فَكُنَّ يُطْعِمْنَ الجِيَاعَ وَيَكْسُوْنَ العُرَاةَ، وَيُقَدِّمْنَ المَأْوَى لِمَنْ لَا مَأْوَى لَهُ، وَيُعَلِّمْنَ الأُمِّيِّيْنَ، وَيُؤْنِسْنَ وَحْشَةَ الوَحِيْدِ، وَيُخَفِّفْنَ عَمَّنْ كَانَ يُحْتَضَرُ، فَهَلْ هُنَاكَ تَعْبِيْرٌ عَنِ الحُبِّ أَبْلَغُ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ؟!!

عُقْلَةُ الإِصْبَعِ ذُو الشَّارِبَيْنِ الطَّوِيلَيْنِ

فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ عَاشَ شَابٌّ يُدْعَى (إيفان) فِي (روسيا) القَيْصَرِيَّةِ، وَكَانَ ذَلِكَ الشَّابُّ ابْناً لِلْقَيْصَرِ حَاكِمِ (روسيا)، وَقَدْ كَانَ مِقْداماً وَشُجَاعاً ومُتَوَقِّدَ الذَّكَاءِ وَحَكِيماً.

كَانَ (إيفان) يُحِبُّ وَالِدَيْهِ كَثِيراً، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ الحُبَّ سَبَّبَ لَهُ مُشْكِلَةً، فَقَدْ كَانَ الحُزْنُ لَا يُفَارِقُ وَالِدَيْهِ، وَكَانَ (إيفان) يَعْرِفُ سَبَبَ حُزْنِهِمَا وَكَمَدِهِمَا، فَمُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، قَبْلَ أَنْ يُولَدَ (إيفان)، كَانَ لَدَى وَالِدَيْهِ ابْنَتَانِ بَارِعَتَا الجَمَالِ، وَهَذَا مَا جَعَلَهُمَا مَصْدَرَ فَخْرٍ لِأَبَوَيْهِمَا اللَّذَيْنِ كَانَا يَعْتَنِيَانِ بِهِمَا أَشَدَّ الاِعْتِنَاءِ، حَيْثُ أَمَرَ الوَالِدَانِ بِبِنَاءِ جِدَارٍ عَظِيمٍ حَوْلَ القَصْرِ لِحِمَايَةِ ابْنَتَيْهِمَا مِنْ أَيِّ شَرٍّ، كَمَا عَيَّنَا عَدَداً كَبِيراً مِنَ الجُنُودِ وَالوَصِيفَاتِ لِحِرَاسَةِ هَاتَيْنِ البِنْتَيْنِ.

وَلَكِنْ فِي أَحَدِ الأَيَّامِ سَمِعَ القَيْصَرُ وَزَوْجُهُ جَلَبَةً وَأَصْوَاتاً حَمَلَتْ إِلَيْهِمَا الذُّعْرَ وَالهَلَعَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمَا الحُرَّاسُ وَالوَصِيفَاتُ وَهُمْ يَبْكُونَ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ، فَسَأَلَهُمُ القَيْصَرُ بِقَلَقٍ: "مَا الأَمْرُ؟" فَأَجَابُوا جَمِيعاً: "إِنَّ زَوْبَعَةً كَبِيرَةً قَدِ اجْتَاحَتِ فَجْأَةً الغُرْفَةَ الَّتِي كَانَتِ الأَمِيرَتَانِ الصَّغِيرَتَانِ تَلْعَبَانِ فِيهَا، وَحَمَلَتْهُمَا مِنْ نَافِذَةِ غُرْفَتِهِمَا بَعِيداً.

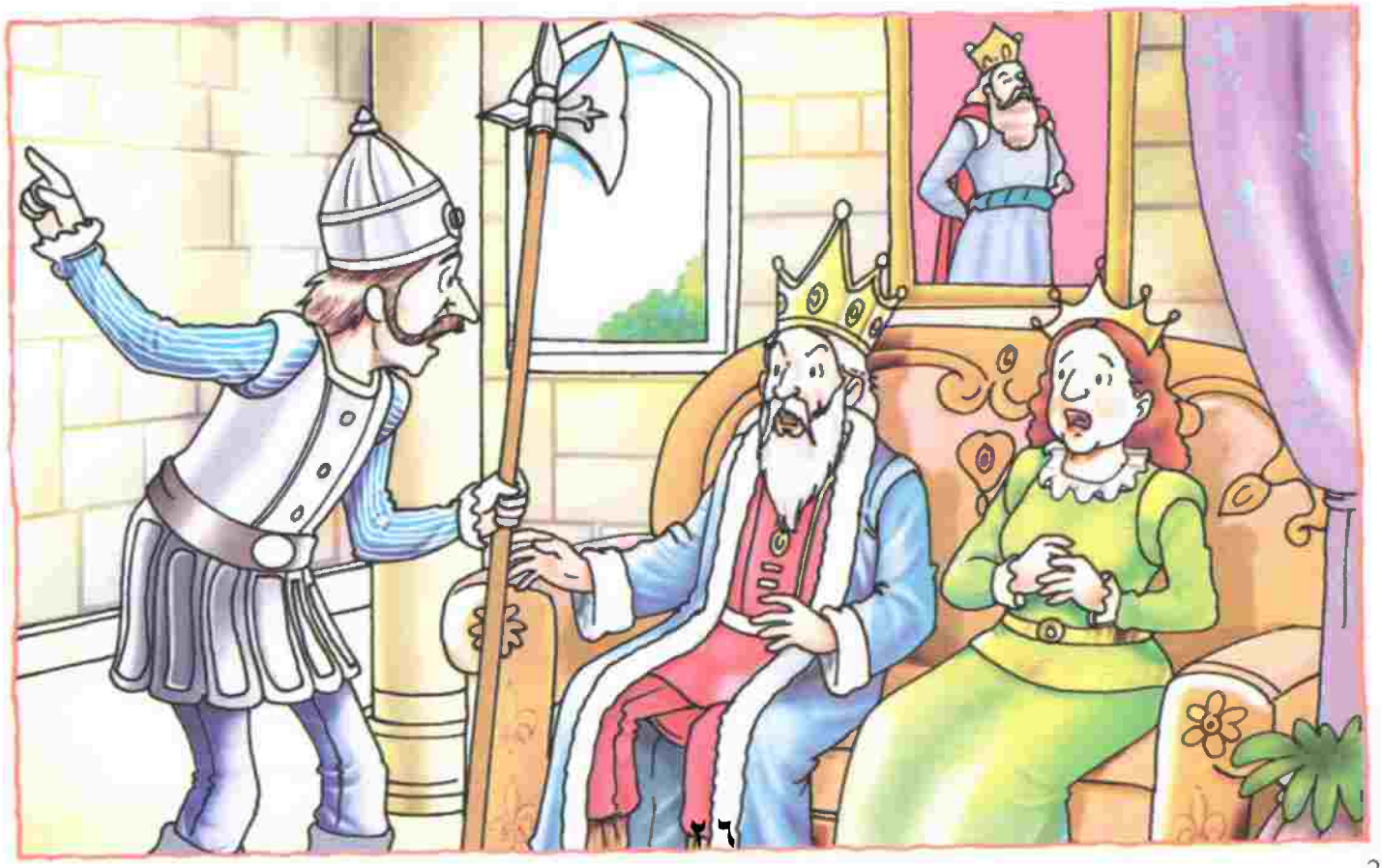

أَسْرَعَ القَيْصَرُ وَزَوْجُهُ لِلْبَحْثِ عَنِ ابْنَتَيْهِمَا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَرْسَلُوْا الجُنُوْدَ يَبْحَثُوْنَ عَنْهُمَا فِي طُوْلِ البِلَادِ وَعَرْضِهَا، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوْا لَهُمَا أَثَراً فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَكَأَنَّ الأَرْضَ قَدِ ابْتَلَعَتْهُمَا، ثُمَّ وَجَدَ القَيْصَرُ وَزَوْجُهُ أَنَّهُمَا مُضْطَرَّانِ لِلْاِقْتِنَاعِ وَالتَّسْلِيْمِ بِمَوْتِ ابْنَتَيْهِمَا فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ بَعْدَمَا أَثْقَلَ الحُزْنُ كَاهِلَيْهِمَا، وَأَضْعَفَ قَلْبَيْهِمَا.

وَبِمَا أَنَّ (إيفان) كَانَ فَتىً شُجَاعاً فَقَدْ دَفَعَهُ ذَلِكَ إِلَى التَّفْكِيْرِ فِي إِعَادَةِ البَهْجَةِ إِلَى حَيَاةِ وَالِدَيْهِ، وَكَانَ مُتَأَكِّداً مِنْ أَنَّ الزَّوْبَعَةَ الَّتِي حَمَلَتْ أُخْتَيْهِ بَعِيْداً عَنِ القَصْرِ مَا هِيَ فِي حَقِيْقَةِ الأَمْرِ سِوَى عِفْرِيْتٍ، وَبِأَنَّ أُخْتَيْهِ مَا زَالَتَا عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ، لِذَا قَرَّرَ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً لِيُعِيْدَهُمَا إِلَى وَالِدَيْهِمَا.

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ جَاءَ إِلَى وَالِدِهِ، وَقَالَ لَهُ: "ائْذَنْ لِي يَا أَبَتِ بِالمُضِيِّ لِلْبَحْثِ عَنْ شَقِيْقَتَيَّ".

فَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُوْهُ بِقَوْلِهِ: "لَمْ يَتَبَقَّ لِي سِوَاكَ يَا بُنَيَّ، لِذَا فَأَنَا لَا أَحْتَمِلُ فِكْرَةَ غِيَابِكَ عَنِّي، وَأَخَافُ أَنْ أَفْقِدَكَ أَنْتَ أَيْضاً، وَلَكِنْ بِمَقْدُوْرِي أَنْ أُرْسِلَ أَحَدَ جُنُوْدِي عِوَضاً عَنْكَ فِي تِلْكَ المُهِمَّةِ".

إِلَّا أَنَّ (إيفان) كَانَ يَعْلَمُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الفُرْسَانِ يَرْغَبُ فِي مُنَازَلَةِ العَفَارِيْتِ، وَهَذَا مَا حَدَثَ فِعْلاً، إِذْ قَدَّمَ المَلِكُ عَرْضاً مُغْرِياً لِمَنْ يَتَصَدَّى لِهَذِهِ المُهِمَّةِ مِنَ الفُرْسَانِ، وَيَصِلُ إِلَى مَكَانِ ابْنَتَيْهِ، وَتَمَثَّلَ هَذَا العَرْضُ بِإِعْطَائِهِ نِصْفَ مَمْلَكَتِهِ، وَتَزْوِيْجِهِ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَشَجَّعْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَلَى المُوَافَقَةِ لِلْخُرُوْجِ فِي تِلْكَ المُهِمَّةِ.

وَهَذَا مَا جَعَلَ القَيْصَرَ يُوافِقُ فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ مُكْرَهاً عَلَى خُرُوْجِ ابْنِهِ (إيفان) لِلْبَحْثِ عَنْ أُخْتَيْهِ، فَدَعَا لَهُ بِالتَّوْفِيْقِ عِنْدَ مُغَادَرَتِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَصْطَحِبَ مَعَهُ مِئَةَ أَلْفِ جُنْدِيٍّ.

بَيْدَ أَنَّ (إيفان) رَفَضَ ذَلِكَ، وَقَالَ لِأَبِيْهِ: "لَا يَا أَبَتِ، يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ وَحْدِي، فَهَذَا الأَمْرُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى القُوَّةِ وَالجُنُوْدِ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الحِكْمَةِ وَسُرْعَةِ البَدِيْهَةِ، لِذَا فَكُلُّ مَا أَحْتَاجُهُ الآنَ هُوَ قِيْثَارَتِي السِّحْرِيَّةُ، وَإِذَا لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ بَعْدَ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ فَعَلَيْكُمْ عِنْدَئِذٍ أَنْ تَخْتَارُوْا المَلِكَ الَّذِي سَيَأْتِي مِنْ بَعْدِكَ يَا أَبِي".

ثُمَّ حَمَلَ (إيفان) قِيْثَارَتَهُ، وَشَرَعَ فِي رِحْلَتِهِ الَّتِي دَفَعَهُ إِلَيْهَا حُبُّهُ لِأُخْتَيْهِ، وَشَوْقُهُ لِمُلَاقَاتِهِمَا، وَبَعْدَ أَنْ أَمْضَى أَيَّاماً وَلَيَالِيَ طَوِيْلَةً وَصَلَ إِلَى أَرْضٍ قَاحِلَةٍ، وَجَدَ فِيْهَا بَيْتاً غَرِيْبَ الشَّكْلِ،

فَقَدْ كَانَ مُحَاطاً بِأَشْجَارِ الصَّنَوْبَرِ وَالسِّنْدِيَانِ، وَبَدَا أَنَّ ذَلِكَ المَنْزِلَ قَدْ أُقِيْمَ فَوْقَ سَاقَيْ دَجَاجَةٍ أَخَذَتْ تَسِيْرُ جَيْئَةً وَذَهَاباً، غَيْرَ أَنَّ (إيفان) أَمَرَ ذَلِكَ البَيْتَ الصَّغِيْرَ بِالكَفِّ عَنِ الحَرَكَةِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ دُخُوْلِهِ، وَالعَجِيْبُ فِي الأَمْرِ أَنَّ البَيْتَ اسْتَجَابَ لِمَطْلَبِهِ، فَدَخَلَهُ (إيفان)، فَوَجَدَ دَاخِلَهُ عَجُوْزاً نَحِيْلَةَ الجِسْمِ أَخَذَتْ تَصِيْحُ بِهِ قَائِلَةً: "لَمْ يَجْرُؤْ أَيُّ رُوْسِيٍّ عَلَى الاقْتِرَابِ مِنْ بَيْتِي، فَلِمَاذَا أَتَيْتَ أَنْتَ إِلَى هُنَا؟"

فَأَخْبَرَهَا (إيفان) أَنَّهُ أَتَى بَحْثاً عَنْ أُخْتَيْهِ الضَّائِعَتَيْنِ، فَبَدَا عَلَيْهَا أَنَّهَا تَعْرِفُ شَيْئاً عَنْهُمَا، ثُمَّ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ العِفْرِيْتَ المُرْعِبَ الَّذِي اخْتَطَفَهُمَا يُعْرَفُ بِـ(عُقْلَةِ الإِصْبَعِ ذُوْ الشَّارِبَيْنِ الطَّوِيْلَيْنِ)، وَأَنَّ قُوَّتَهُ تُعَادِلُ قُوَّةَ الزَّوْبَعَةِ، كَمَا أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ إِذَا سَارَ فِي الطَّرِيْقِ الَّذِي أُقِيْمَ كُوْخُهَا بِجَانِبِهِ فَسَوْفَ يَصِلُ إِلَى الكُوْخِ الَّذِي يَعِيْشُ فِيْهِ ذَلِكَ العِفْرِيْتُ.

عِنْدَهَا شَكَرَ (إيفان) العَجُوْزَ، وَمَضَى يَبْحَثُ عَنْ أُخْتَيْهِ، وَبَعْدَ أَنْ قَطَعَ مَسَافَةً طَوِيْلَةً وَصَلَ إِلَى كُوْخِ العِفْرِيْتِ، وَلَمْ يَكُنْ مَوْجُوْداً فِي بَيْتِهِ فِي ذَلِكَ

الوَقْتِ، لِذَا أَخَذَ (إيفان) يُفَكِّرُ بِطَرِيْقَةٍ يُمْكِنُهُ مِنْ خِلَالِهَا إِعَادَةُ العِفْرِيْتِ إِلَى كُوْخِه، فَجَمَعَ بَعْضَ المَلْفُوْفِ مِنَ الحَدِيْقَةِ المَوْجُوْدَةِ خَارِجَ المَنْزِلِ، وَبَدَأَ يُعِدُّ الطَّعَامَ، وَحِيْنَمَا انْتَشَرَتْ رَائِحَةُ الطَّعَامِ المَطْهِيِّ، وَأَخَذَتْ تَسْرِي عَبْرَ النَّسِيْمِ، دَخَلَ (عُقْلَةُ الإِصْبَعِ ذُوْ الشَّارِبَيْنِ الطَّوِيْلَيْنِ) إِلَى الكُوْخِ، وَصَاحَ بِـ(إيفان) قَائِلاً: "كَيْفَ تَجَرَّأْتَ عَلَى دُخُوْلِ كُوْخِي يَا هَذَا؟"

إِلَّا أَنَّ (إيفان) كَانَ فَتىً شُجَاعاً لَا يَهَابُ شَيْئاً، دَفَعَتْهُ مَحَبَّتُهُ لِوَالِدَيْهِ لِلْإِقْدَامِ عَلَى تِلْكَ المُهِمَّةِ، لِذَا فَقَدْ وَقَفَ بِهُدُوْءٍ وَسَطَ الغُرْفَةِ، وَخَاطَبَ العِفْرِيْتَ قَائِلاً: "يَا لَكَ مِنْ قَزَمٍ! مَا رَأْيُكَ أَنْ تَكْبُرَ قَلِيْلاً قَبْلَ أَنْ تَصْرُخَ هَكَذَا كَالمَجْنُوْنِ؟"

فَزَادَتْ كَلِمَاتُ (إيفان) مِنْ حِدَّةِ غَضَبِ العِفْرِيْتِ، فَارْتَفَعَ صُرَاخُهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، ثُمَّ رَمَى بِنَفْسِهِ فَوْقَ (إيفان)، لَكِنَّ (إيفان) لَمْ يَخَفْ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى يَقِيْنٍ مِنْ أَنَّ الشَّخْصَ إِذَا تَمَلَّكَهُ الغَضَبُ فَلَنْ يَتَصَرَّفَ بِعَقْلَانِيَّةٍ وَحِكْمَةٍ.

حَاوَلَ (إيفان) أَنْ يَتَفَادَى ضَرْبَاتِ العِفْرِيْتِ، وَذَلِكَ حِيْنَمَا أَمْسَكَ بِشَارِبَيْهِ، وَأَخَذَ يَجُرُّهُ مِنْهُمَا، وَلَمْ يَتَمَكَّنِ العِفْرِيْتُ مِنْ أَنْ يُفْلِتَ مِنْ قَبْضَتِهِ المُحْكَمَةِ رَغْمَ مُحَاوَلَاتِهِ المُتَكَرِّرَةِ، لَكِنَّهُ تَمَكَّنَ فِي النِّهَايَةِ مِنْ تَحْرِيْرِ نَفْسِهِ

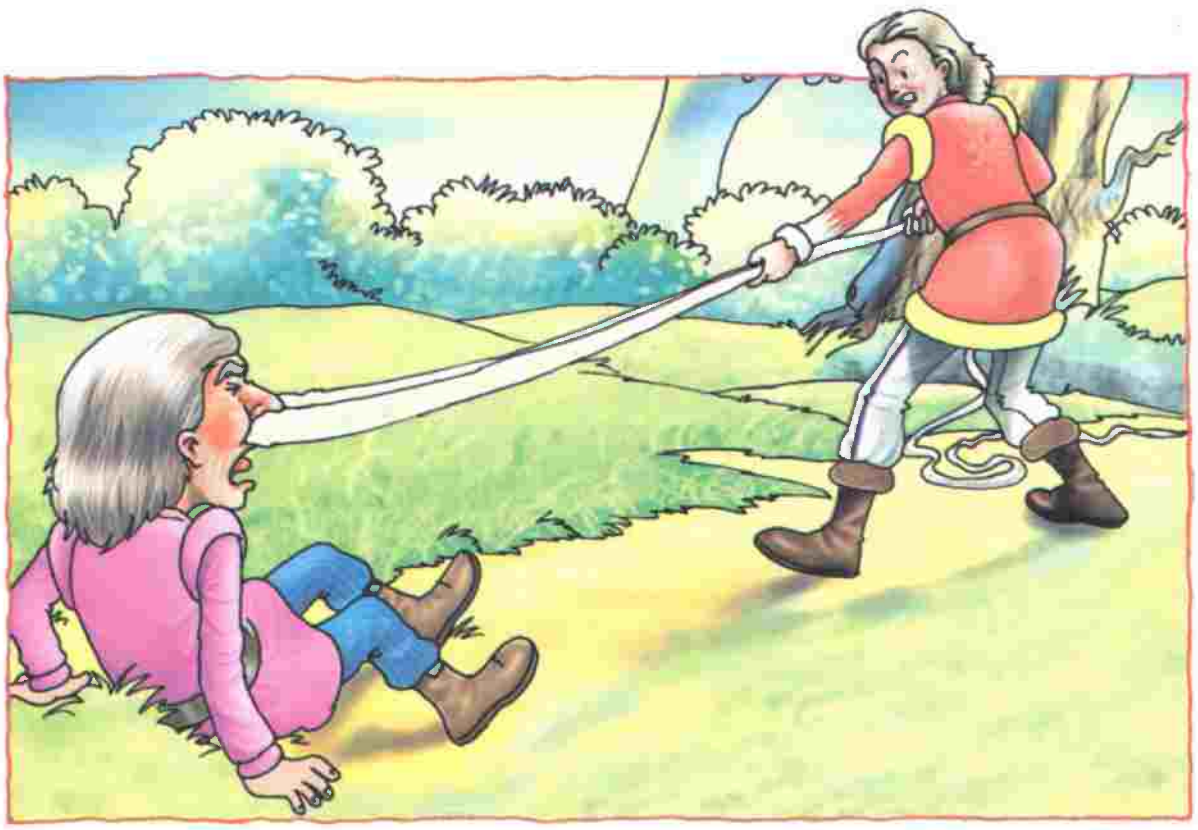

وَالهُرُوْبِ مِنَ الكُوْخِ تَارِكاً خُصْلَةَ شَعْرٍ كَامِلَةً بَيْنَ يَدَي (إيفان)، الَّذِي اِسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَزِعَهَا مِنْ شَارِبَيْهِ، وَقَدِ اِخْتَفَى ذَلِكَ العِفْرِيْتُ، وَغَابَ عَنِ الأَنْظَارِ رَغْمَ مُلَاحَقَةِ (إيفان) لَهُ.

وَهَكَذَا وَجَدَ (إيفان) نَفْسَهُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَمْ يَعُدْ يَدْرِي مِنْ أَيْنَ يَبْدَأُ بِالبَحْثِ عَنْ أُخْتَيْهِ، فَقَرَّرَ أَنْ يَتَّبِعَ خُطَّةً مُحَدَّدَةً لِيَتَمَكَّنَ مِنَ العُثُوْرِ عَلَيْهِمَا، حَيْثُ كَانَتْ خُطَّتُهُ تَقُوْمُ عَلَى أَنْ يَعْمَلَ بِنَقْلِ النَّاسِ بِمَرْكَبٍ مِنْ ضِفَةِ النَّهْرِ إِلَى الضِّفَةِ المُقَابِلَةِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ سُؤَالِهِمْ فَرْداً فَرْداً عَنْ أَيِّ مَعْلُوْمَاتٍ حَوْلَ أُخْتَيْهِ الضَّائِعَتَيْنِ، وَقَدِ اِمْتَدَّتْ بِهِ الحَالُ عَلَى تِلْكَ الشَّاكِلَةِ سَنَةً كَامِلَةً لَمْ يُحَقِّقْ فِيْهَا أَيَّ تَقَدُّمٍ يُذْكَرُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى مَعْلُوْمَاتٍ مُفِيْدَةٍ حَوْلَ أُخْتَيْهِ.

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ قَدِمَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ صَالِحِيْنَ طَاعِنِيْنَ فِي السِّنِّ، وَعَرَضُوْا عَلَيْهِ نُقُوْداً ذَهَبِيَّةً مُقَابِلَ نَقْلِهِمْ إِلَى الضِّفَةِ المُقَابِلَةِ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمْ (إيفان) أَنْ يُعِيْدَ لَهُمُ النُّقُوْدَ إِذَا سَاعَدُوْهُ فِي إِعْطَاءِ مَعْلُوْمَاتٍ مُفِيْدَةٍ حَوْلَ العِفْرِيْتِ.

فَأَخْبَرَهُ أَكْبَرُهُمْ أَنَّهُ مَا عَلَى (إيفان) إِلَّا أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ حَيْثُ يُوْجَدُ ذَلِكَ العِفْرِيْتُ، وَسَيَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ بِإِذْنِ اللهِ.

فَشَكَرَ (إيفان) ذَلِكَ الرَّجُلَ عَلَى نَصِيْحَتِهِ، ثُمَّ جَلَسَ يَتَمَنَّى أَنْ يَجِدَ نَفْسَهُ فِي المَكَانِ الَّذِي حَبَسَ فِيْهِ العِفْرِيْتُ أُخْتَيْهِ، وَفِي طَرْفَةِ عَيْنٍ وَجَدَ (إيفان) نَفْسَهُ عِنْدَ مَدْخَلِ كَهْفٍ مُظْلِمٍ كَانَ العِفْرِيْتُ يَقْبَعُ دَاخِلَهُ. وَحِيْنَمَا دَخَلَ (إيفان) وَوَجَدَ العِفْرِيْتَ صَاحَ بِهِ قَائِلاً: "أُرِيْدُ أُخْتَيَّ"، فَجَعَلَ العِفْرِيْتُ يُقَهْقِهُ سَاخِراً مِنْهُ،

ثُمَّ أَخَذَ يَجُرُّ الأُخْتَيْنِ مِنْ شَعْرِهِمَا الأَشْقَرِ، وَهَدَّدَهُ بِإِغْرَاقِهِمَا فِي أَحَدِ الأَنْهَارِ القَرِيْبَةِ، وَكَانَ جَرَيَانُهَا، وتَدَفُّقُ مِيَاهِهَا مَسْمُوْعاً.

فَخَطَرَتْ لِـ(إيفان) فِكْرَةٌ ذَكِيَّةٌ بِسُرْعَةٍ، فَأَمْسَكَ قِيْثَارَتَهُ، وَأَخَذَ يَعْزِفُ لَحْناً رَاقِصاً، وَحَالَمَا سَمِعَ العِفْرِيْتُ تِلْكَ المُوْسِيْقَا، تَجَمَّدَ فِي مَكَانِهِ، وَتَرَكَ الأُخْتَيْنِ وَشَأْنَهُمَا، وَمِنْ ثَمَّ أَخَذَ يَرْقُصُ وَيَدُوْرُ فِي حَلْقَاتٍ، بَيْنَمَا بَدَأَ شَارِبَاهُ بِالالْتِفَافِ حَوْلَهُ، مَا جَعَلَهُ يَبْدُوْ كَزَوْبَعَةٍ أَثْنَاءَ دَوَرَانِهِ، وَظَلَّ ذَلِكَ العِفْرِيْتُ يَرْقُصُ مَعَ المُوْسِيْقَا الَّتِي كَانَتْ تَصْدَحُ مِنْ قِيْثَارَةِ (إيفان).

وَلَقَدِ اسْتَخْدَمَ (إيفان) ذَكَاءَهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَذَلِكَ حِيْنَمَا تَرَكَ قِيْثَارَتَهُ عَلَى الأَرْضِ، وَأَمَرَهَا أَنْ تُوَاصِلَ العَزْفَ، وَبَيْنَمَا كَانَ العِفْرِيْتُ يَرْقُصُ سَاعَدَ (إيفان) أُخْتَيْهِ عَلَى الهَرَبِ.

وَهَكَذَا تَمَكَّنَ (إيفان) مِنْ تَحْقِيْقِ أُمْنِيَّةِ وَالِدَيْهِ بِفَضْلِ الحُبِّ الكَبِيْرِ الَّذِي تَسَلَّحَ بِهِ، وَبِفَضْلِ رَغْبَتِهِ الشَّدِيْدَةِ

بِإِسْعَادِهِمَا وَإِدْخَالِ الفَرَحِ عَلَى قَلْبَيْهِمَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُطِيْقُ الكَآبَةَ وَالحُزْنَ عَلَى وَجْهَيْهِمَا، كَمَا تَمَكَّنَ بِفَضْلِ دَهَائِهِ وَحِكْمَتِهِ مِنْ إِعَادَةِ أُخْتَيْهِ إِلَى حِضْنِ وَالِدَيْهِمَا الحَبِيْبَيْنِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَحَبَّةَ وَالِدَيْهِ مَنَحَتْهُ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالإِقْدَامِ مَا سَاعَدَهُ عَلَى مُقَارَعَةِ الشَّرِّ وَالتَّفَوُّقِ عَلَيْهِ.

أُمَّاهُ

أُمَّاهُ لَقَدْ وَهَبْتِنِي

الحَيَاةَ الَّتِي أَعِيْشُهَا كَيْفَمَا شِئْتُ

فَأَنَا مَدِيْنٌ لَكِ بِكُلِّ مَا حَقَّقْتُهُ

أُمَّاهُ، يَا أُمِّي الحَبِيْبَةَ

أُمَّاهُ، حِيْنَمَا كُنْتُ صَغِيْراً

أَرْشَدْتِنِي إِلَى الطَّرِيْقِ القَوِيْمِ

وَلَمْ أَكُنْ لِأَبْلُغَ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ لَوْلَا مَحَبَّتُكِ

أُمَّاهُ، يَا أُمِّي الحَبِيْبَةَ

لَقَدْ مَنَحْتِنِي السَّعَادَةَ يَا أُمِّي

سَعَادَةً يَعْجَزُ اللِّسَانُ عَنْ وَصْفِهَا

لِذَا أَدْعُوْ اللهَ أَنْ يَحْفَظَكِ

وَأَنْ يَحْمِيَكِ صَبَاحَ مَسَاءَ

أُمَّاهُ! لَقَدْ أَصْبَحْتُ كَبِيْراً

وَأَسْتَطِيْعُ الآنَ أَنْ أَسِيْرَ فِي دَرْبِي

لَكِنِّي أَوَدُّ أَنْ أَمْنَحَكِ بَعْضَ مَا مَنَحْتِنِي

أُمَّاهُ، يَا أُمِّي الحَبِيْبَةَ